مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المحور الخامس

القرآن وعلومه وتفسيره

٩٩

تفسير سورة الحِجْر

الإمام يوسف القرضاوي

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من الدستور الإلٰهي للبشرية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ۞ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۞ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۞ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٦ ـ ٩].

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ۞ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَـٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۞ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ۞ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٣١].

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٖ وَعُيُونٍ ۞ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ۞ وَنَزَعۡنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۞ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ۞ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٥ ـ ٥٠].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٥

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن عائشة ﵂ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**خُلِقَتِ الملائكةُ من نور، وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلِقَ آدم ممَّا وُصِفَ لكم**». رواه مسلم.

عن أبي سعيدٍ الخُدْرِي ﵁ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ إبليسَ قال لرَبِّه ﷻ: وعِزَّتِكَ وجلالِكَ لا أبرح أُغْوِي بني آدم ما دامت الأرواحُ فيهم، فقال له ربُّه ﷻ: فبِعِزَّتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني**». رواه أحمد.

عن أبي هُرَيْرة ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**...إذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنَّه أوسطُ الجنَّة وأعلى الجنَّة** - أراه - **فوقه عرشُ الرحمٰن، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّة**». رواه البخاري.

عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لمَّا قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي غلبت غضبي**». متفق عليه.

عن ابن عمر ﵄، أنَّ النبيَّ ﷺ لما مرَّ بالحِجْر قال: «**لا تدخلوا مساكن الَّذين ظلموا أنفسهم، إلَّا أن تكونوا باكين، أنْ يصيبكم ما أصابهم**» ثم تقنَّع بردائه وهو على الرَّحْل. متفق عليه.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الَّذي أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وأرسل رسوله محمدًا بالهدى ودين الحق، ليبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم، ليكون هُدًى وبشرى ورحمة للعالمين، وهدى علماء الأمة، ليقتبسوا من هذا النور، ويوجهوا الأمة إلى صراط ربهم المستقيم. فصلَّى الله عليهم ورضي عنهم وعمن اهتدى بهداهم، وسلك سبيلهم إلى يوم الدين.

(أمَّا بعد)

فقد وجدنا أنَّ أفضل ما يهتدي إليه الإنسان؛ أن يوفقه الله لاختيار منهج الإيمان بالله تعالى ربًّا للكون، وبارئًا للإنسان، وواهبًا للحياة، ومُمِدًّا بكل النعم العظمى الَّتي أسبغها على الإنسان ظاهرة وباطنة ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وممَّا يحمد الإنسان ربه عليه جَلَّ جَلَالُهُ أن يشرح صدره ليعرف طريق الإيمان الصحيح، وهو طريق رسل الله وأنبيائه الَّذين بعثهم الله مبشرين ومنذرين؛ لئلَّا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. ابتداءً من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذي قال الله تعالى لمحمد ﷺ في شأنه: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى أن ختمهم بمحمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

QaradawiBooks.com

الَّذي قال الله فيه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولم يدعنا الله جل شأنه دون مرجع أساسي نلتزم به، ونعود إليه، فيحكم بيننا فيما نختلف فيه، ويفصل بيننا فيما نتنازع فيه، فهو وحده الحكم العدل، والميزان الحق، عندما تتضارب العقول، أو تلتبس الآراء، أو تختلف الأهواء: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ولهذا علَّمنا النبي ﷺ أن نلتجئ إلى الله سبحانه، لندعوه ونتضرع إليه أن يهدينا لما اختلفنا فيه من الحق بإذنه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «**اللهم ربَّ جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنَّك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[(١)].

ومن هنا كان القرآن العظيم هو النور الأعظم، والدستور الأكرم، والمرجع الأقوم، لأمة الإسلام أو أمة محمَّد عليه الصلاة والسلام. فهو قانون السماء لهداية الأرض، ودستور الخالق لإصلاح الخلق.

وقد وصفه منزله سبحانه بالشمول والتكامل لكل الجوانب الَّتي تحتاج إليها البشريَّة، الَّتي تتطلع إلى القِيَم الرفيعة، والمُثُل العُلْيا، في

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بلوغ الحق والخير والجمال. أمَّا سنة النبي الكريم، فهي شرحه النظري، وتطبيقه العملي، والمساعد على حسن فهمه كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ولا عجب أن وجدنا علماء الأمة وأئمتها وقادة فكرها، في كل عصر من الأعصار، وفي كل قطر من الأقطار، يتوافدون على هذا المرجع الإلٰهي الأكبر، يغترفون منه ما استطاعوا، ويقتبسون من أنواره ما قدروا عليه، يحاولون تفسيره وتأويله، ويبتغون فهمه وتحقيقه؛ ليهديهم سواء السبيل، وليأخذ بهم إلى أقوم قيل. إلى جوار ما كان لهم في خدمة السُّنَّة النبويَّة وتوثيقها وربط النَّاس بها، تتميمًا لحسن فهم الكتاب.

وقد حاولت أن أحشر نفسي مع هؤلاء الكبار، الَّذين خدموا المصدرين، والذين نفعوا الأمة بتراثهم الكريم، وبتفسيراتهم القيمة، وببحوثهم الناضجة، فنحن بهداهم نهتدي، وبآثارهم نقتدي، ونجتهد أن يكون لنا أثر يذكر فيما وفَّقهم الله إليه في فهم كتاب الله، وشرحه لجمهور المسلمين، وتيسيره وتفسيره لهم، حسب ما نقدر عليه، وما يهدينا الله إليه ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ولذا قدَّمنا تفسيرنا لسورة الرعد ونشرناه، ثمَّ بعدها سورة إبراهيم، ثمَّ سورة الحِجْر، هذه الَّتي كتبنا لها هذه المقدمة.

وأود أن أذكر هنا حقيقة مهمة، هي أنَّ هذا التفسير الَّذي قدمته في هذه السورة الكريمة، ينفرد بأنَّه (تفسير شفوي) لم أقدِّمه مكتوبًا ككل التفاسير. ولكنَّه (تفسير مسجدي) هو من دروس المساجد. وقد قدمت هذه السورة في قطر، في مسجد عمر بن الخطاب أولًا، ثمَّ في مسجد الشيوخ بالدوحة.

QaradawiBooks.com

وقام على خدمة سورة الرعد أولًا الأخ الكريم محمود عوض. وقام الإخوة في مكتبي العلمي على خدمة الباقي، وخصوصًا الأخ الفاضل: إسماعيل إبراهيم متولي وفقه الله وأكرمه، ثمَّ انضم إليهم من مركز القرضاوي للوسطية والتجديد العالم السوري الحلبي الأستاذ: مجد مكي، فقام بدور مشكور، جزاه الله خيرًا. أسهب فيه أحيانًا بعض الشيء، فطلبت منه أن يختصره، حتَّى لا نكثر على القارئ، ويخرج الكتاب عن مهمته الأصلية.

ثم أعملت فيه قلمي، في تغيير بعض العبارات الَّتي اقتضاها الارتجال، وأبديت ما لا بدَّ منه من ملاحظات، وراجعته وأقررته على الصورة الَّتي هو عليها الآن.

وبهذا نكون قد أدَّينا بعض الواجب للمصدرين الأساسيين عندنا: القرآن العظيم، وسنة نبينا محمَّد ﷺ. فمن اعتمد عليهما واعتصم بهما فقد هدي إلى صراط مستقيم. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

الفقير إلى الله تعالى

يوسف القرضاوي

الدوحة في ٢ جمادى الأولى ١٤٣٣هـ

٢٥ مارس ٢٠١٢م

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تمهيـد

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبـة للمُتَّقين، وأزكـى صلوات الله وتسليماته على من أرسله رحمة للعالمين، ونعمة للمؤمنين، وحُجَّة على النَّاس أجمعين، سيِّدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا ومُعَلِّمنا محمَّد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

سـورة الحِجر، سـورة مكيَّة، نزلت كلُّها بمكَّة المكرَّمة قبل هجرة النبيِّ ﷺ إلى المدينة، وعدد آياتها تسـعة وتسـعون آية. وسُمِّيت سورة الحِجْـر لانفرادها بذكـر لفظة «الحِجْـر» فيها، وهـي أرض ثمود قومِ صالحٍ عليه السلام.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الأول

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۞ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۞ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۞ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۞ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۞ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۞ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۞ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۞ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۞ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۞ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۞ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ١ ـ ١٥].

ذوات ﴿الٓر﴾:

وهي سورة تبدأ بالحروف المقطعة ككثير من سور القرآن، وهي من ذوات ﴿الٓر﴾، وقد افتُتحت بها ستُّ سُوَر من القرآن الكريم، وهي: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، وخُتِمَتْ بسورة الحِجْر.

وتميَّزت كلُّها بأنَّها تتحدَّث عن قصص الأنبياء، وسُمِّيت بأسمائهم، إلَّا سورة الرعد فلم تتحدَّث عن أحد من الأنبياء، كما تميَّزت بشيء آخر أنَّها بدأت بـ ﴿الٓمٓرۚ﴾ [الرعد: ١].

وهذه السورة بدأت بـ ﴿الٓر﴾، وهي سورة الحِجْر.

والمقصود بالحِجْر: «حِجْر ثمود»؛ لأنَّها تتحدَّث عن نبيِّ الله صالح وقصَّته المذكورة في أواخر السورة: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠].

هذه السورة بدأت بقوله تعالى:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾

نقول في اللغة العربيَّة: «تلك» اسم إشارة إلى المؤنث البعيد، و«ذلك» اسم إشارة للمذكر البعيد، كما في سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، «ذلك» إشارة إلى القرآن، الكتاب البعيد في المنزلة العالية، علوًّا يُعْتَبَر بعيد المرام، رفيعَ المَقام، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢]، الَّذي يشار إليه بالبنان، وهنا إشارة إلى الآيات، ولذلك جاءت بهذه الصيغة: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: آيات هذا القرآن المُعْجِز العجيب الرائع.

الكتاب المسطور والقرآن المتلوُّ:

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾

كما ذكر في سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

وفي سورة يونس: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].

وفي سورة يوسف: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

وفي سورة الرعد: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الرعد: ١].

QaradawiBooks.com

وفي سورة الشعراء: ﴿طسٓمٓ ۞ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الشعراء: ١، ٢].

وفي سورة القصص: ﴿طسٓمٓ ۞ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [القصص: ١، ٢].

وفي سورة لقمان: ﴿الٓمٓ ۞ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١، ٢]، وكل هذه أوصاف للقرآن، فهو كتابٌ مبين، وكتابٌ حكيم، وكتابٌ لا ريب فيه.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[١]، إذا ذكر الكتاب فلا كتاب غيره، هو الكتاب الكامل الَّذي اجتمعت فيه كلُّ الخصائص، وكلُّ المميزات في كلِّ الكتب السماويَّة، فإذا ذُكِرَ هو لم يُذْكَر غيره.

اللهُ أكبرُ إنَّ دينَ مُحمَّدٍ وكتابَه أهدى وأقومُ قِيلَا
لا تذكرِ الكُتَبَ السوالفَ عندَه طلع الصباحُ فأطْفِئِ القِنْدِيلَا[٢]

السرُّ في تعريف الكتاب وتنكير قرآن:

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾[٣]، هذا الكتاب هو القرآن المبين.

عرَّف الكتاب ونكَّر القرآن، والتنكير هنا ـ كما يقول النحويُّون ـ للتفخيم والتعظيم، أي: قرآن مبين يتميَّز بالإبانة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤]، فهو كتاب مبين، أي: معناه بيِّن في نفسه، مُبَيِّن للحقائق، كاشف للأباطيل.

---

(١) أطلق على ما أنزل الله ﷻ على نبيه «الكتاب» للدلالة على وجوب تدوينه بالكتابة، وجعله بين الناس كتابًا محررًا يرجعون إليه، محميًّا من التحريف والتغيير. و«أل» في لفظ «الكتاب» للكمال.

(٢) من لامية البوصيري، ومطلعها: جاء المسيحُ من الإلٰه رسولَا. انظر: المجموعة النبهانية في المدائح النبوية لإسماعيل النبهاني (١٨٣/٣)، نشر المطبعة الأدبية، بيروت، ١٣٢٠هـ.

(٣) أي: جليّ واضح من الفعل «أبان» اللازم. ومُبين للعلوم والحقائق والتكاليف من فعل «أبان المتعدِّي». يقال: أبان الشيءُ، أي: وضح وظَهر فهو مبين، ويقال: أبان نور المصباح جدرانَ الغرفة، أي: أظهرها وأوضحها.

QaradawiBooks.com

الإبانة من خصائص القرآن الكريم:

من خصائص القرآن: الإبانة، فهو كتابٌ مُبين، ومن إبانته أنَّه يفهمه الخاصُّ والعامُّ، كلٌّ منهم يأخذ منه على قدر سَعَة واديه، حتَّى الطفل الَّذي يقرأ القرآن الكريم.

قرأتُ القرآن الكريم وأنا طفل، فكنتُ أفهم منه، أقرأ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣]، فأعرف معناها الإجمالي، ولكن قد لا أعرف ماذا تعني ﴿قَلَىٰ﴾؟ ومعناها إجمالًا: أنَّ ربَّنا ما تركك ولا هجرك، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۞ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۞ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۞ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۞ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٤ ـ ١١]، كلمة: ﴿عَائِلًا﴾ لا أفهم ما معناها، ولكن أفهمها بالسياق: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، أي: فقيرًا فأغناك. وهكذا، فهو قرآنٌ مُبِين.

القرآن والكتاب شيءٌ واحد:

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾، بعضهم يريد أن يجعل الكتاب شيئًا والقرآن شيئًا، وهذا خلل وتحريف وتزييف؛ لأنَّه شيء واحد، يسمَّى كتابًا؛ لأنَّ الله جعله كتابًا، وأمر الرسول ﷺ بكتابته، ولذلك كان هناك كُتَّاب للوحي، يكتبون كلَّ ما ينزل من القرآن الكريم، وكان الكُتَّاب قليلين في ذلك الوقت.

«كان عثمان بن عفان وعليٌّ يكتبان الوحي لرسول الله ﷺ، فإنْ غابا كتب أُبَيُّ بن كعب وزيدُ بن ثابت.

وكان أبيُّ بنُ كعب ممَّن كتب لرسول الله ﷺ الوحي قبل زيد بن ثابت ومعه أيضًا، وكان زيد ألزم الصحابة لكتابة الوحي، وكان أُبَيٌّ إذا

QaradawiBooks.com

لم يحضر دعا رسول الله ﷺ زيد بن ثابت، وكان أُبَيٌّ وزيد يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ.

ونحوه في «العِقْد الفريد» لابن عبد ربِّه، قال القُضَاعي: فإن لم يحضر أحد منهم كتب الوحي من حضر من الكتاب، وهم: معاوية وجابر بن سعيد بن العاصي وأبان بن سعيد والعلاء بن الحَضْرَمي وحنظلة بن الربيع»[١].

وكانت أدوات الكتابة في غاية الصعوبة والعسر، يكتبون على العظام، والعُسُب والرقاع واللِّخاف[٢]. والعُسُب: جمع عَسِيب وهو سَعَف النخل. واللِّخَاف جمع لَخفة، وهي حجارةٌ بِيض رقاق. يكتبون على ما يتيسَّر من الأشياء.

فهو كتاب، وهو قرآنٌ؛ لأنَّه يقرأ، اجتمع فيه أنَّه يُقرأ ويُتلى بالألسنة، ويتناقله النَّاس مشافهة، ومع هذا يكتب كتابة، ليكونَ هذا أوثق.

وفي هذه السورة قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾.

وفي سورة النمل يقول الله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١]، نفس الشيء الكتاب هو القرآن، والقرآن هو الكتاب، ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١، ٢].

---

(١) التراتيب الإدارية للعلَّامة محمد عبد الحي الكتاني (١٥١/١)، تحقيق عبد الله الخالدي، نشر دار الأرقم، بيروت، ط٢.

(٢) وفي الحديث عن زيد بن ثابت: فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب والرقاع واللِّخاف وصدور الرجال. رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨٦).

QaradawiBooks.com

تذكير الكفَّار بمصيرهم في الآخرة:

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾

هـذا الكتاب الَّذي ختمت السـورة السـابقة ـ سـورة إبراهيم ـ بالإشـارة إليه، آخر آية فسَّـرناها في سـورة إبراهيم قول الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، هذا الكتاب جاء ينـذر، ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾، جاء نذيـرًا للكافرين، جاء يُذَكِّرهـم بمصايرهم، يُذَكِّرهـم بعاقبة أمرهم، يُذَكِّرهم بآخرتهم، وأنَّه سيأتي يوم يندمون فيه غاية الندم، ويتحسَّرون فيه غاية التحسُّر على موقفهم من هذا الدِّين العظيم، على موقفهم من الإسلام، سيأتي يوم يودُّون لو كانوا مسلمين، ولكن هذا سيكون بعد فوات الأوان، يندمون حيث لا ينفع الندم، ويتحسَّرون حيث لا يُجدي التحسُّر؛ لأنَّ الله ﷻ أعطاهم مهلة: ﴿ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٧]، لم يسـتفيدوا من هذا العمر المديد، ولم يستجيبوا للنذير.

متى يودُّ الَّذين كفروا لو كانوا مسلمين؟

قد قرأنا في سورة إبراهيم: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، حينما يُلاقون ما وعدهـم الله به من العـذاب، حينما يدخلـون النَّار جزاء ما كفروا، وجزاء ما كسـبت أيديهم، وما قدَّمت أيديهـم في الدُّنيا، حينما يلقون هذا العذاب الأليم في ذلك الوقت، يودُّ الَّذين كفروا لو كانوا مسلمين.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تحسُّر أهل النَّار وتمنِّيهم أن يكونوا مسلمين:

جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، فيما رواه الحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي: «**إذا اجتمع أهل النَّار في النَّار، ومعهم من أهل القبلة من شاء الله، قالوا: ما أغنى عنكم إسلامكم، وقد صرتم معنا في النَّار؟**

قالوا: كانت لنا ذنوبٌ فأُخِذْنا بها.

فسمع الله ما قالوا، قال: فأمر بمن كان في النَّار من أهل القبلة فأُخْرِجوا.

فيقول الكفَّار: يا ليتنا كُنَّا مسلمين، فنخرج كما أُخْرِجوا».

قال: وقرأ رسول الله ﷺ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾[1].

كما صحَّت بذلك الأحاديث: أنَّ أهل التوحيد جميعًا يخرجون من النَّار، ففي الحديث: «**فيخرج من النَّار من قال: لا إله إلا الله. وكان في قلبه من الخير ما يَزِنُ شعيرةً، ثمَّ يخرج من النَّار من قال: لا إله إلا الله. وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّة، ثمَّ يخرج من النَّار من قال: لا إله إلا الله. وكان في قلبه من الخير ما يزن ذَرَّة**»[2]. ولا يبقى فيها إلَّا من كفر كفرًا صريحًا، وليس في قلبه شيء من الإيمان، هنا يودُّ الَّذين كفروا لو كانوا مسلمين.

---

(١) رواه الحاكم في التفسير (٢٤٢/٢)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (١١١٠٤): رواه الطبراني، وفيه خالد بن نافع الأشعري، قال أبو داود: متروك، قال الذهبي: هذا تجاوز في الحد، فلا يستحق الترك، فقد حدث عنه أحمد بن حنبل وغيره، وبقية رجاله ثقات. وصحَّحه الألباني في ظلال الجنة (٨٤٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤١٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٣)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

معنى ﴿ رُّبَمَا ﴾:

﴿ رُّبَمَا ﴾ هذه تخفيف «رُبَّ»، هي لغة من اللغات[1]، فالعرب قالوا: «رُبَّ» مشدَّدة، وقالوا: «رُبَ» بدون تشديد، ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ ﴿ رُّبَمَا ﴾ تأتي للتقليل، وتأتي للتكثير أحيانًا، يعني في أحيان يشغلهم العذاب حتَّى عن هذا التمنِّي، ولكن في بعض الأحيان يتذكَّرون ويقولون: يا ليتنا كُنَّا مسلمين.

الأصل في «رب» أنَّها تدخل على الأسماء، ولكن إذا دخلت عليها «ما» كفَّتْها عن العمل، وجاز أن تدخل على الفعل، ويكون ماضيًا أو مُنزلًا منزلته في تحقيق وقوعه: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾، كما قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧]، يا ليتنا نُرَدُّ إلى الدُّنيا مرَّة أخرى فنُصَدِّقَ بآيات الله، ونكونَ من المؤمنين بالقرآن وبمحمَّد ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ستغلبهم طبيعتهم الَّتي ترى الحقَّ أمامها وتُعْرِض عنه وتُكذِّب به ويعودون إلى الكفر.

معنى «ودَّ» في القرآن:

مادة (ودد) لها معنيان: معنى الحُبِّ، ومعنى التمنِّي، تقول: «فلان يودُّ فلانًا» أي: يحبُّه.

---

(١) (ربَما) قُرئ بالتخفيف والتَّشديد، قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم: (رُبَما) بتخفيف الباء، والباقون: (رُبَّما) بتشديد الباء المفتوحة، وهما لغتان. انظر: المبسوط في القراءات العشر لأبي بكر النيسابوري صـ ٢٥٩، تحقيق سبيع حمزة حاكيمي، نشر مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

ونقول: «يودُّ الشيءَ» يعني يتمنَّاه، والودادة هنا بمعنى التمنِّي، وخصوصًا جاءت بعدها ﴿لَوۡ﴾، الَّتي تفيد التمنِّي؛ لأنَّ «لو» تأتي للشرط أحيانًا، وتأتي للتمنِّي أحيانًا، فهم يتمنَّون لو كانوا مسلمين، لو استجابوا لدعوة محمَّد ﷺ، لو كانوا آمنوا بالقرآن، لو دخلوا فيما دخل فيه بلال وعمَّار وغيرهما من الَّذين كانوا يسخرون منهم ويستهزئون بهم.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، أي: لو استسلموا في الدُّنيا لأمر الله، وآمنوا به وبرسوله.

أكْلُ الكفَّار وتمتُّعهم في شهواتهم ولذَّاتهم:

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾

اتركهم ـ يا محمد ـ في دنياهم الَّتي استعبدتهم، والَّتي صرفتهم عن الإيمان، وصدَّتهم عن سبيل الله، دعهم مع الشهوات واللذائذ، ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾[1]، التمتُّع هو التلذُّذ بالحياة والتنعُّم بما فيها من أعراض، وما فيها من متاع.

سمَّاه القرآن «متاع الغُرور»، فقال: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، والحديد: ٢٠].

ووصفه بالقِلَّة فقال: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ[2] وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [التوبة: ٣٨].

---

(١) وهو أمر وعيد لهم وتهديد، أي: ليسوا ممَّن يرعوي عمَّا هم فيه من الكفر والتكذيب، ولا ممَّن تنفعه النصيحة والتذكير.

(٢) المتاع: كل شيء يُنتفع به، والفناء يأتي عليه في الدنيا.

QaradawiBooks.com

وقال بعد أنْ ذكر أصناف المحبوبات إلى الإنسان، من الشهوات والنساء والبنين والأموال والخيل والأنعام والحرث: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وإنَّما هو متاع إلى حين كما قال تعالى[1].

التمتُّع بالدُّنْيا ونسيان الآخرة من شأن الكفَّار:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ التمتُّع إذا ذُكِرَ في القرآن غالبًا ما يُذكر بالذمِّ، فقد قرأنا في سورة إبراهيم: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وفي سورة الزُّمَر: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وفي سورة المرسلات: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]، هكذا التمتُّع شأن الكفَّار الَّذين تشغلهم المتعة، وتشغلهم شهوات الدُّنيا، ويشغلهم إشباع الغرائز، نسوا عقولهم، ونسوا ضمائرهم وقلوبهم، ونَسُوا ربَّهم، ونسوا آخرتهم، وشُغِلوا بهذا المتاع الأدنى.

وعيدٌ شديد من الله ﷻ:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾، كما جاء في القرآن في آيات أخرى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣]، ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥]، وكل هذا وعيد.

---

(١) كما في سورة البقرة (٣٦)، والأعراف (٢٤)، والأنبياء (١١١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿ ذَرۡهُمۡ ﴾، هذا وعيد شديد من الله ﷻ، إنَّه لا يبالي بهم، اتركهم سيلاقون مصيرهم حتمًا: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ ﴾، كما قال تعالى عن أهل الكفـــر: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ [محمد: ١٢].

الأنعام تأكل أكثر ممَّا يأكل الكافرون:

إذا كانت المسألة مســألة أكلٍ وتمتُّع، فالأنعام تأكل كما يأكلون أو أكثر ممَّا يأكلون؛ لأنَّ بطون الأنعام أكبر من بطون بني آدم، بطن البقر أو الجاموس أو الجمل أكبر من بطن الإنسان، ماذا يأكل الإنسان؟! البهائم والأنعام تأكل وتتمتع بأكلها؛ لأنَّها لا تفكر في شيءٍ آخر: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ [محمد: ١٢].

الأمل بين الذمِّ والمدح:

﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾، أي: يشغلهم الأمل[١]. والأمل يعني الرجاء في الحياة، والأمل في ذاته ليس مذمومًا، بل هو ضرورة من ضرورات الحياة، كما قال الشاعر:

أُعَلِّــلُ النَّفْــسَ بالآمــالِ أرقُبها ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأملِ[٢]

لولا أملُ الإنســان في النجاح، أملُ الطالب فــي التفوُّق في آخر العام، وأمل الغــارس أن يجد في النهاية ثمرًا لغرســه، أمل الزارع أن

(١) أي: يستهلك أوقاتهم وطاقاتهم، والمراد بالأمل هنا: الأمل الذي ليس له واقع مطموع فيه، بل هو أوهام وتصورات ذهنيَّة ضائعة.

(٢) من شعر الطغرائي، في لاميَّته المسمَّاة لاميَّة العجم، انظر: ديوانه صـ ٣٠٦، تحقيق د. علي جواد الطاهر ود. يحيى الجبوري، نشر مطابع الدوحة الحديثة، ط ٢، ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

يجد حصاد زرعه، هـذا الأمل هو ما يدفع عجلة الحيـاة إلى الأمام، ولذلك قال أحد الحكماء: لولا الأمل ما غرس غارس غرسًا، ولا زرع زارعٌ شجرًا، ولا بنى بانٍ بُنْيَانًا.

الأمل هو الَّذي دفع العلماء إلى التقـدُّم بالعلم، حتَّى رأينا الثورات العلميَّـة الكبرى، فأمـل العلماء هو الَّـذي دفعهم إلـى التفكير، وإلى الدراسـة، وإلى متابعـة الأمـر، حتَّى وصلـوا إلى هـذه المخترَعات والمكتشَفات الهائلة، والقوانين والسُّنن الكونيَّة والاجتماعيَّة.

طول الأمل مذموم:

فالأمل مطلوب، ولكنَّ طول الأمل هو المذموم، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾، الأمل المُلْهي هو الأمل الطويل، الَّذي يجعل صاحبه وكأنَّه مُخَلَّد في الدُّنيا، كأنَّه لا يموت، كأنَّ الإنسان خُلق ليَخْلُد، وهو يرى من حوله يسـقطون واحـدًا بعد الآخر ـ الأقـارب والجيران والزملاء والأصدقاء والأحبـاب ـ يختطفهم الموت مـن حوله، ولكنَّه ينسى هذا ويقول: في العمر مُتَّسَع، وفي الزمن بقيَّة.

ابن العشـرين أو ابن الثلاثين يقول: سـيصلح حالـي وأتوب عند الأربعين. وابن الأربعين أيضًا يقول: عندما أبلغ السِّـتِّين. وابن السِّتِّين يقول: عندما أبلغ الثمانين. وهكذا.

هذا هو طول الأمل، الَّذي يقول فيه الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما أطال عبد الأمل إلَّا أساء العمل[1]. يقول الإمام القرطبي: «وصدق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ! فالأمل يُكْسِـل عن العمـل، ويُـورث التراخي والتوانـي، ويعقب التشـاغل

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٨٥).

QaradawiBooks.com

والتقاعس، ويخلد إلى الأرض، ويميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شـــوهد بالعِيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يطلب صاحبه ببرهان.

كما أنَّ قِصَر الأمل يبعث على العمل، ويُحيل على المبادرة، ويحثُّ على المسابقة».

ويقول: «وطولُ الأمـــل داءٌ عُضال ومرضٌ مُزْمِـــن، ومتى تمكَّن من القلب فسد مِزَاجه، واشتدَّ علاجه، ولم يفارقه داء، ولا نجح فيه دواء، بل أعيا الأطبَّاء، ويئس من بُرْئه الحكماء والعلماء.

وحقيقة الأمل: الحرص على الدُّنيا، والانكباب عليها، والحبُّ لها، والإعراضُ عن الآخرة»[(١)].

وجاء في الحديث: «**يَهْرَمُ ابنُ آدم وتَشِـــبُّ منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر**»[(٢)].

طول الأمل هذا هو الَّذي يجعل الإنسان ينسى الموت، ينسى الآخرة، ينسى أنَّ كلَّ حيٍّ سيموت، وكلَّ ميتٍ سيُبْعث، وكلَّ مبعوثٍ سيُحاسَب، وكلَّ محاسَبٍ سيدخل إمَّا جنةً وإمَّا نارًا.

ولـــو أنَّـــا إذا مِتْنـــا تُرِكْنـــا لكان الموتُ راحـــةَ كُلِّ حَيِّ
ولكنَّـــا إذا مِتْـــنـــا بُعِثْنـــا فنسألُ بعدَها عن كلِّ شَيِّ[(٣)]

(١) تفسير القرطبي (٢/١٠، ٣) بتصرف، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٢١)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٧)، عن أنس بن مالك.

(٣) من شعر ينســـب إلى ســـيِّدنا علي بن أبي طالب، كما في الفاضل للمبرد صـ ١٣، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٤٢١هـ.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

نسيان مصاير المكذبين:

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾، طول الأمل هو الَّذي أنساهم مصاير المكذِّبين والعصاة من قبلهم، الأمم الَّتي كفرت بالله وكذَّبت رُسُلَه ماذا أصابهم؟ هم يَمُرُّون عليهم، يَمُرُّون على قرى لوط، ويمرُّون على حِجْرِ ثمود، ومدائن صالح، ويروْنَ آثار الظالمين، ومع هذا لا يعتبرون.

تحذيرٌ وإنذارٌ ووعيد:

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾، كلمة: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾، هذا تحذير وإنذار ووعيد. سوف يعلمون إذا جاء أجلهم، حينما تحقُّ عليهم كلمة العذاب، سوف يعلمون ماذا ينتظرهم، وماذا يدَّخر الله لهم من عقوبة في الدُّنيا قبل الآخرة.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وبال صنيعهم إذا عاينوا جزاءه، هذا وعيد الله تعالى لهؤلاء.

دعوى القرطبي بنسخ هذه الآية بآية السيف:

ومن أعجبِ ما قرأتُ حول هذه الآية ما قاله الإمام القرطبيُّ في تفسيره قال: «هذه الآية منسوخةٌ بالسَّيْف»[1].

يا عجبًا ما الَّذي يعارض آية السيف في هذه الآية؟! وهذه الآية تكرَّر معناها: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ ﴾ [الزخرف: ٨٣] و[المعارج: ٤٢]، ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ [الطور: ٤٥]، أي شيء يعارض

(١) ذكره القرطبي في التفسير (٢/١٠).

QaradawiBooks.com

آية السيف حتَّى تنسخ آية السيف هذه الآية وما في معناها، ولكن ولع هؤلاء المُفَسِّرين بقصَّة النسخ، والتوسُّع فيها، والمبالغة في دعاوى النَّسْخ، جعل إمامًا كبيرًا مثل الإمام القرطبي المفسِّر العظيم يقول هذا: هذه الآية منسوخة بآية السيف. يعني ألغيت هذه الآية وما عاد لها فائدة، لأنَّ آية السيف نسختها! ألغت مفهومها، هذه الآية ملغاة!

هذا الكلام لا يُقْبَل؛ لأنَّ الله أنزل كتابه ليعمل به، وليحكم به: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ولذلك أكَّد المحقِّقون من العلماء أنَّ النسخ لا يكون إلَّا بأمر محقَّق.

قال ابن حجر: «النَّسْخ لا يُصار إليه بالاحتمال»[(١)].

وقال ابن حزم: «لا نُنْكِرُ نسخ الأمر كلِّه بدليل يقوم على ذلك، وإنَّما ننكر دعوى النسخ بلا دليل»[(٢)]، وقال في «المُحَلَّى»: «ولا يصحُّ دعوى النسخ إلَّا بنصٍّ مُسْنَدٍ إلى رسول الله ﷺ»[(٣)].

لا يجوز ادِّعاء نسخ الآية إلَّا بيقينٍ؛ لأنَّ ربَّنا أنزلها في كتابه، فتقول: هذه الآية مُلغاة وبطل مفعولها! لا بدَّ أن يكون عندك يقينٌ عندما تدَّعي ذلك، وإلَّا فقد افتريت على كتاب الله، وافتأتَّ على هذا القرآن العظيم، وليس معنا يقين، ولا شبهُ يقين، ولا ظنٌّ بأنَّ هذه الآية نُسِخَت؛ لأنَّ

(١) فتح الباري لابن حجر (٢٤٣/١٠)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
(٢) الإحكام لابن حزم (٣٥٩/٣)، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٤هـ.
(٣) المحلى لابن حزم (٥٢٩/٧)، نشر دار الفكر للطباعة.

QaradawiBooks.com

معناها بَيِّن، وعيـدٌ للكفَّار المُكَذِّبين، الَّذين اغترُّوا بأنفسـهم وأموالهم وبدنياهم، وأعرضوا عن الإيمان، وأعرضوا عن الرسـالة، وعيد هؤلاء: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾، أيُّ شيءٍ نُسِخَ في هذا؟ هذا أمرٌ باقٍ ومستمرٌّ إلى يوم القيامة.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، هـذه الآية مُحْكَمة غير منسـوخة، باقية مسـتمرَّة، والعمل بها مطلـوب إلى يوم القيامة، هي وعيدٌ للكافرين، وفيها تخويف للمؤمنين.

الخلافُ في الآية الناسخة المسمَّاة بـ «آية السيف»:

والعجيب أنَّه اختُلف في الآية الناسخة الَّتي سمَّوها آية السيف أي آية هي؟ اختلفوا فيها على أقوال: وأكثر الأقوال وأصحُّها أنَّها آية: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبـة: ٥]، وهـذه الآية نزلت في المشـركين الَّذيـن تعدَّوْا الحدود، وطغَوْا، وآذَوْا رسول الله ﷺ، ونقضوا العهود، فنزلت آية البراءة: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبـة: ١]، ثـمَّ أمهلتهم أربعة أشهر، فإذا انسلخ الأشـهر الحرم فاقتلوا المشركين... هؤلاء الَّذين نزلت فيهم الآيات، هذه هي الحقيقة الَّتي جاءت بها الآية.

دعاوى النسخ عند بعض المُفَسِّرين:

ولكنَّ عيبَ كثيرٍ من المُفَسِّرين أنَّ كلَّ آية جاءت في القرآن يُشَمُّ منها اللين أو الرِّفْق أو الأمر بالصبر أو الحِلْم أو الدعوة يقولون: نسـختها آيةُ السيف، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]،

QaradawiBooks.com

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ١٠٩]، ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ [الروم: ٦٠]، ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه: ١٣٠]، فهذه الآيات وأمثالها الَّتي أمرت بالصبر عامَّة، أو الصبر لحكم الله، أو على المشركين، نسختها جميعًا آية السيف.

وألحقوا بها الآيات الَّتي تأمر بالإعراض عن المشركين، والتي تأمر بالعفو والصفح، أو تأمر بالدفع بالَّتي هي أحسن، أو تأمر بجدال الكفَّار بالَّتي هي أحسن، وكذلك الآيات الَّتي تأمر بحُسْن معاملة الكفَّار، وغيرها من الآيات، نسختها آية السيف. وهذه مبالغة لا نقبلها. ونحن نؤمن بأنَّ كتاب الله باقٍ معمولٌ به، لا يجوز نسخُه إلَّا بيقينٍ، ولا يقينَ.

إهلاك أهل القرى في أوقات معلومة محدَّدة:

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴾

المقصود بالقرية: أهل القرية. تقول: اسأل القرية. أي: أهل القرية، هذا مجاز معروف، نقول: حكمت المحكمة. والمحكمة هي المكان الَّذي يجتمع فيه القضاة، فتقول: حكمت المحكمة. أي: قضاتها. ويقول الله تعالى على لسانِ إخوة يوسفَ لأبيهم يعقوب: ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف: ٨٢]، ليس المقصود: اسأل المباني؛ بل المقصود: اسأل أهل القرية.

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا [(١)] كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴾، كلُّ ما قَدَّر الله ﷻ في هذه الحياة من أحداث ووقائع تنزل بالأفراد، أو تنزل بالمجتمعات، فهو

(١) والواو في ﴿وَلَهَا﴾ لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، فيقال: جاءني زيدٌ عليه ثوب، وجاء زيدٌ وعليه ثوب. انظر: الكشاف للزمخشري (٢/٥٧٠)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

QaradawiBooks.com

مُقَـدَّر عند الله، مكتوب في كتاب، كلُّ شـيء معلوم ولـه أجل محدد، ووقت مدوَّن: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، فكلُّ قومٍ استحقُّوا الهلاك لكفرهم وعنادهم وتعدِّيهم على رسل الله والمؤمنين بهم، هؤلاء سيأتيهم ما قدَّر الله لهم في موعده المحدَّد المعلوم، وهذا معنى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، أي: أجل محدَّد مكتوب مسطور، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣]، فهو مسطَّر عند الله.

الموعد المحدَّد لإهلاك الأمم الظالمة:

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ(١) أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾

كلُّ أُمَّة لها أجلٌ مُعَيَّن، إذا كانت أمة صالحة، فإنَّ الله ﷻ يمدُّ لها أسباب الخير والفلاح، ويطعمها من فوقها ومن تحت أرجلها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، هذا مكتوب أيضًا عند الله، الأُمَّة الَّتي قدر الله لها أن تؤمن وتعمل صالحًا يؤتيها الطيبات، ويبارك في حياتها، والأُمَّة الَّتي قدر الله أن يهلكها، وهو لا يهلك الأمم اعتباطًا ولا عبثًا ولا ظلمًا، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، إذا

(١) الأمة: الجماعة يؤلِّف بينها دينٌ أو عقيدة أو أيُّ فكرة ممَّا يجمع الناس.

QaradawiBooks.com

كان أهلها مصلحين لا يمكن أن يهلكها الله، إنَّما يُهْلِكُ الله من ظلم وأفسد، ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]، يوجد موعد محدَّد لإهلاك الظالمين، ولذلك يقول هنا: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾، الَّذي حدَّد الله فيه هلاكها، إذا كان الله قد حدَّد هلاكها في سنة مُعَيَّنة، وفي شهر محدَّد، وفي يومٍ معلوم، سيأتي الهلاك في اللحظة المقدَّرة.

استعجال الكفَّار العذاب ومباغتتهم به:

والكفَّار يستعجلون نزول العذاب: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، فهناك أجلٌ مسمَّى معيَّن حدَّده ربُّنا، لولا هذا الأجل لجاءهم العذاب، ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

من سُنن الله ﷻ: أن يباغتهم العذاب من حيث لا يتوقَّعون، يأتيهم بياتًا وهم نائمون، يأتيهم ضحًى وهم يلعبون، هكذا، ولكن يأتيهم وهم في غفلة يُباغتهم ويُفاجئهم.

سُنَّة اللهِ في تقدير الآجال للأمم والأفراد:

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، لا تُقدِّم ولا تُؤخِّر، إنَّما يأتي عذاب الله وعقابه في الأجل المُسمَّى، في الموعد المحدَّد كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، لا استئخار ولا استقدام، في اللحظة المحدَّدة، وهذا ينطبق على الأمم، وينطبق على الأفراد: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

QaradawiBooks.com

استهزاء المعاندين المكذبين برسول الله:

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾

يتحدَّث الله عن هؤلاء المشركين المعاندين المكذِّبين، وكيف يستهزئون برسول الله ﷺ ويقولون في لغةٍ متهكِّمة: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾، فهم لا يُصَدِّقون أنَّ هناك ذكرًا منزلًا عليه من السماء، فقولهم: ﴿نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾، تفيد أنَّه يوجد شيء نازل من أعلى إلى أسفل، أي: من عند الله جاءت به الملائكة إلى محمَّد، هم يسخرون ويقولون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾، كما تزعم وتدَّعي: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾[1]: فاقد للعقل والتفكير السويِّ، حيث تدعو بدعوةٍ تخالف ما عليه النَّاس، تُسفِّه دينَ الآباء والأجداد، تدعو إلى ترك الآلهة الَّتي يظنُّون أنَّها تنفع وتضرُّ، وهي لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع، ولا تبصرُ ولا تسمع، ولا تملك موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولكنَّهم يزعمون هذا. يا من يقف ضد العقائد السائدة، ويقاوم وحده المجتمع كلَّه، وينادي بدعوة التوحيد الَّتي ترفضها الكافة والأغلبيَّة، يقولون: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِى ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴾ [صٓ: ٧].

﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىۡءٌ عُجَابٌ ﴾ [صٓ: ٥]، ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا ﴾ [صٓ: ٨]، فهم يستغربون أن يدعو إلى دعوة التوحيد، هذا شيء عجاب.

ولماذا هو وحده الَّذي نزل عليه الذكر من بيننا، وهناك أناس عظماء: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، مثل الوليد بن المغيرة في مكَّة، أو عروة بن مسعود الثَّقَفي بالطائف.

(١) أكَّد كبراء مشركي مكة استهزاءهم بـ «إنَّ»، والجملة الاسميَّة، واللام المزحلقة.

QaradawiBooks.com

وصف الأمم المكذِّبة رسل الله بالجنون:

هكذا كان موقف هؤلاء السفهاء: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾، ووصف رسل الله بالجنون متواتر عن الأمم المختلفة، ما أكثر ما وصف المرسلون بأنَّهم مجانين. وكلُّ إنسان صاحب دعوة يؤمن بها، ويدعو إليها، وهي تخالف أعراف النَّاس، وخصوصًا إذا خالفت أعراف أكابر القوم، والعِلْيَة من النَّاس ـ كما يسمُّونهم ـ يطلقون عليه هذا الوصف: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾؛ لأنَّه يُضَحِّي ويغامر بنفسه وبحياته ويقف ضد التيار، يعني: يسبح ضد التيار، فيقولون: هذا مجنون.

سيِّدنا نوح عليه السلام قالوا فيه: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴾ [القمر: ٩]، هكذا وصف الأنبياء، وكما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وسيِّدنا موسى عليه السلام قالوا فيه: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩].

هكذا الأمم قبل العرب، وقبل قريش، قالوا مثل هذا، كما قالوا: في محمَّد إنَّه ساحر أو مجنون. وقالوا فيمن سبقه من الرسل، ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٣]. يعني هل وصَّى بعضهم بعضًا بأن يقولوا هذا؟ فكلُّ أُمَّة تقول هذه المقولة، كأنَّ هناك وصية من الأُمَّة الَّتي قبلها، والحقيقة أنَّه ليس هناك وصيَّة، إنَّما يقول الله: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾، أي: اشتركوا في الطغيان، فاشتركوا في النتيجة، تشابهت قلوبهم كما قال الله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ ﴾ [البقرة: ١١٨]، فتشابهت أقوالهم؛ لأنَّ المصدر واحد، وهو طغيان الحقِّ وتجاوز الحدِّ.

QaradawiBooks.com

افتراء المشركين على رسول الله ﷺ:

لقد افتروا على رسول الله ﷺ قالوا: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢]، وقالوا: ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وقالوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]. وقالوا ما قالوا، وكلُّها أكاذيب وأباطيل لا تقوم على حجَّة، ولا تُبْنَى على منطق.

قلب الحقائق عند المشركين:

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، انظروا كيف يكون محمَّد عليه الصلاة والسلام مجنونًا، وهؤلاء المشركون الَّذين يستندون للأصنام، الَّذين ينحتون الأصنام بأيديهم ثمَّ يعبدونها، ويسألونها أن تجلب لهم الخير، أو تدفع عنهم الضرَّ، أهؤلاء عقلاء ومحمدٌ مجنون؟! انظروا كيف تقلب الحقائق، المجانين يدَّعون على أعقل النَّاس، وأذكى النَّاس، وأفضل النَّاس أنَّه مجنون، هذا هو العجب.

الله تعالى يقول: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٤]، أنت صاحب الخُلق العظيم، كيف يكون صاحب الخُلُق العظيم مجنونًا؟ المجنون لا يتصرَّف تصرُّفًا مفهومًا؛ لأنَّ حياته خلط وخبط، يعمل الشيء الآن، ويهدمه بعد قليل، ويقول الآن شيئًا، ويقول شيئًا ينقضه بعد ذلك، فحياتُه متناقضة، وأقواله متناقضة، وهذه الأشياء غير مفهومة، فكيف يكون محمَّد مجنونًا، لا يمكن أن يكون صاحب الخُلُق العظيم مجنونًا: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

طلب المشركين الإتيان بالملائكة:

﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

﴿ لَّوۡ مَا ﴾، هنا معناه التحضيض مثل: لولا وهلَّا، أي: هلَّا تأتينا بالملائكة وتُحْضِرهم عيانًا، إن كنت من الصادقين في دعواك بأنَّ الملائكة تنزل عليك، هات الملائكة، اجعلْنا نراها تأتي وتشهد لك. وهكذا رأينا المُكَذِّبين للرسل في الرسالات المختلفة يَلْجؤون إلى هذه الدعوة، ويطلبون نزول الملائكة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ۞ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢]، الملائكة إذا نزلت ستنزل بعذاب الله.

حتى فرعون قال عن سيِّدنا موسى: ﴿ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٣]، ومشركو مكَّة حين طلبوا من النبيِّ آياتِ تعجيز قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعٗا ۞ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۞ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء: ٩٠، ٩٣] إلخ.

الردُّ على اقتراحات كفَّار قريش:

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾[1]

فهؤلاء الَّذين يطلبون نزول الملائكة، ويقولون: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الحجر: ٧].

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بنونين الأولى مضمومة والثانية مفتوحة وكسر الزاي، =

QaradawiBooks.com

يــردُّ الله تعالــى عليهــم: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجـر: ٨]، ما نُنَزِّل الملائكة حيــن نُنَزِّلهــا إلَّا تنزيلًا مقترنًا بالحقِّ، وعلى الوجه الَّذي اقتضته الحكمة، وهي تُنَزَّل إمَّا بالوحي وإمَّا بالعذاب: إمَّا بالوحي للرســل، أو بالعذاب علــى مكذِّبيهم، حين يأتي الوقت المعلوم: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]، تأتي الملائكة حين نزولها بالحقِّ ويكون فيها هلاكهم، ويكون فيها نقمة الله تعالى عليهــم، كما قال ســبحانه: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

انتهاء الإمهال عند نزول الملائكة:

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾

هم يستعجلون نزول الملائكة، وســتأتي الملائكة عند نزولها بالحقِّ، ومن الحــقِّ: ما قَدَّر الله لهــم من عذابٍ ومــن هلاك. وهم يســتعجلون مصيرهم، يســتعجلون هلاكهم، إذا نزلت الملائكة فلا إنــذار ولا إمهال، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾، فــي هذه الحالة انتهت المهلــة الَّتي أعطيت لهم، انتهت الفرصة الَّتي أتيحت لهم، إذا نزلت الملائكة كان هلاكهم ودمارهم، فعلامَ يستعجل هؤلاء؟! ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾[1].

= الملائكة بالنصــب ﴿نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾، وروى أبو بكــر بالتاء مضمومة وفتــح النون والزاي الملائكة بالرفع (تُنَزَّلُ المَلَائِكَةُ)، وقرأ الباقــون كذلك إلا أنهم فتحوا التاء (تَنَزَّلُ المَلَائِكَةُ) وبين هذه القراءات تكاملٌ، والمؤدَّى واحد. انظر: النشــر في القراءات العشر لابن الجزري (٣٠١/٢) تحقيق علي محمد الضباع، نشر المطبعة التجارية الكبرى.

(١) قال العلامة ابن جزي الغرناطي في (التسهيل) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾: إذًا: حرف جواب وجــزاء، والمعنى: لو أنــزل الملائكة لم يؤخِّر عذاب هــؤلاء الكفار، الذين اقترحوا نزولهم، لأنَّ من عادة الله أنَّ من اقتــرح آية فرآها ولم يؤمن، أنَّه يُعجَّل له العذاب، وقد علم الله أنَّ هؤلاء القوم يؤمن كثيرٌ منهم، ويؤمن أعقابهم، فلم يفعل بهم ذلك.

QaradawiBooks.com

حفظ القرآن الكريم من التغيير والتبديل والزيادة والنقص:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

للأسف وجدنا بعض المغرورين من الدخلاء على القرآن وعلى علوم القرآن، ممَّن يدَّعون أنَّهم يقرؤون القرآن قراءة معاصرة، قراءة جديدة، ويحسبون أنَّ الطبري وابن الجوزي والزمخشري والرازي وابن كثير والقرطبي وابن تيمية وابن القيِّم وكلَّ مفسِّري المسلمين ـ تفسيرًا بالرواية وتفسيرًا بالدراية ـ لم يفهموا القرآن، هم الَّذين يفهمونه وحدهم، ويقولون: أنا أبدأ من الصفر، لا تقلْ لي: حديث مرفوع، ولا حديث موقوف. ولا تقل لي تفسير ابن عباس. ولا تقل لي: تفسير ابن مسعود ولا غيره. أنا أبدأ من جديد. ويأتوننا بالعجب، ومن العجب الَّذي جاؤوا به أنَّهم قالوا: الذِّكْر شيء، والقرآن شيء، والفرقان شيء. وهكذا.

الذِّكْر هو القرآن:

الذِّكْر هو القرآن: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦]، وهل نزل عليه شيء غير القرآن؟! حتَّى المشركين قالوا هذا: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ [ص: ٨]، والله سبحانه قال هذا: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

لماذا سُمِّي القرآن ذكرًا وفرقانًا؟

الذِّكْر هو القرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ سُمِّي ذكرًا؛ لأنَّه يُذَكِّر بالله وبعبادته، ويُذَكِّر بتشريعه وآدابه، ويُذَكِّر بالأخلاق وأصول الفضائل، ويُذَكِّر بالآخرة، ويُذَكِّر بكلِّ ما هو خير، إنَّه هو التذكير: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩]،

QaradawiBooks.com

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، هو مُذَكِّر، ولذلك سُمِّي ذِكْرًا.

كما سُمِّي فُرْقانًا؛ لأنَّه يَفْرِقُ بين الحقِّ والباطل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

الردُّ على أصحاب القراءة المعاصرة للقرآن:

وهؤلاء يزعمون أنَّ الذِّكْر شيء، وأنَّ القرآن شيء، وأنَّ الكتاب شيء، والقرآنُ يُكذِّبهم ويردُّ عليهم: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١].

ونقرأ في سورة الشورى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، الذِّكْر هو الكتاب العزيز ليس شيئًا آخر، ثمَّ يقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]، فهو القرآن، وهو الذِّكْر، وهو الكتاب في سياق واحد، ولكنَّ هؤلاء جعلوا القرآن عضين ـ مفرَّقًا ـ يقرؤون القرآن منفصلًا بعضه عن بعض، لا يستحضرون ما ورد في الموضوع من آيات، ولذلك يقعون في هذه الهاوية من سوء الفهم ومن ضلال الفكر، والعياذ بالله.

لم يتأهَّلوا لتفسير القرآن، لم يعرفوا القرآن حقَّ المعرفة، لم يعرفوا السُّنَّة النبويَّة، وهي بيان القرآن، لم يعرفوا كيف يفهم القرآن، لم يفهموا أصول الفقه، وما وضعه العلماء من قواعد لحُسْن الفهم، كيف يُحْمَل المُطلَقُ على المقيَّد، والعامُّ على الخاصِّ، وكيف يُفَسِّر الواضحُ غيرَ الواضح، والمُفَصَّل المُجْمَل، إلخ، لم يتأهَّلوا للقرآن، ولكن هذه دعواهم.

QaradawiBooks.com

الفرق بين نزَّلنا وأنزلنا:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾، أي: القرآن، كلمة ﴿نَزَّلْنَا﴾ ـ كما قلنا ـ من فوق، أحيانًا ﴿أَنزَلْنَا﴾، وأحيانًا ﴿نَزَّلْنَا﴾، إذا روعي إنزال القرآن مرَّة واحدة قال: ﴿أَنزَلْنَا﴾، وإذا رُوعي أنَّه نزل في ثلاثٍ وعشرين سنة نجومًا مفرَّقة على حَسَب الحوادث، يقال: ﴿نَزَّلْنَا﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ بصيغة المُعَظِّم نَفْسَه، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾، لم ينزله أحد غيرنا، ولا يمكن لأحدٍ أن ينزله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢].

المؤكِّدات على حفظ القرآن الكريم:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، نحن المتكفِّلون بحفظه، فلا يقدر أحد على الزيادة فيه، ولا النقصان منه، ولا تبديله، بخلاف غيره من الكتب، الَّتي استحفظها الله عباده فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤].

أكَّد الله حفظ القرآن بهذه الصيغة، وعلماء اللغة يقولون: الجملة الاسميَّة أوكد من الجملة الفعليَّة، فإذا أُكِّدت الجملة الاسميَّة بـ «إنَّ» كان هذا زيادة في التأكيد، فنحن نقول: «إنَّ» حرف توكيد ونصب. تقول: محمَّد حاضر. وتقول: إنَّ محمدًا حاضر. فهذا توكيد، فإذا أدخلت اللام في الخبر كان هذا زيادة توكيد على توكيد، تقول: إنَّ محمدًا لحاضر. وهنا يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

فرق بين أن يقول: «ونحفظه»، وبين أن يقول: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾. ولم

QaradawiBooks.com

يقل سبحانه: نحن له حافظون. لا، إنَّما قال: ﴿وَإِنَّا﴾، ولم يقل: «إنَّا له حافظون». لا، إنَّما قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. وهذا تأكيد في حفظ هذا الكتاب العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

تميُّز القرآن بالحفظ دون غيره من الكتب:

ولذلك لا يوجد كتاب من الكتب الدينيَّة محفوظ كما حفظ القرآن الكريم، وقد هيَّأ الله سبحانه لحفظ القرآن، أن يحفظ في الصدور والسطور، فهذا القرآن محفوظ في الصدور، متلوٌّ بالألسنة، مكتوب في المصاحف، يحفظه الآلاف، بل عشرات الآلاف، بل مئات الألوف، بل الملايين[1] يحفظون القرآن الكريم كلَّه، حتَّى الصبيان يحفظون هذا القرآن. هات لي الكتابَ المقدَّس، هل يحفظه الكرادلة والأساقفة والقسس؟! هل يحفظون الكتاب المقدس؟ لا يوجد من يحفظ الكتاب المقدَّس، ولا نصفه، ولا رُبعه، ولا خُمسه، ولا عُشره، إنَّما يحفظون أجزاءً منه.

القرآن يحفظه الرجال والنساء، والكبار والصغار، وقد هيأ الله تعالى له أسباب الحفظ.

كتابة القرآن من عوامل حفظه:

بعض النَّاس يقول: ما دام الكتاب محفوظًا، فلماذا كتبه الصحابة؟ ولماذا جمعه سيِّدنا عثمان؟! وهذا من أسباب الحفظ. يحفظه أي: يُهيِّئ له من الأسباب والوسائل ما يجعل هذا القرآن محفوظًا، لا يعتريه تغيير

(١) قال الإخوة في ليبيا: إنَّهم عندهم مليون حافظ بأسمائهم وملفاتهم. وقد بدؤوا في المليون الثاني.

QaradawiBooks.com

ولا تبديل، ولا حذف ولا نقص. نحن نقرأ القرآن كما كان يقرؤه النبيُّ ﷺ وأصحابه، بغَنِّه ومدِّه، وحركاته وسكناته. ووُضِعَ في هذا: علم التجويد، وعلم مخارج الحروف، وعلم القراءات. وهذه العلوم ليُحفظ هذا القرآن، كما أنزل مشافهة، ثمَّ جمع على عهد أبي بكر، ثمَّ كُتِبَ في عهد سيِّدنا عثمان «مصحف الإمام»، ووزع على أمصار المسلمين وأقطارهم، ليُقرأ على حرفٍ واحد، حتَّى لا يختلف فيه المسلمون.

المحافظة على الرسم العثماني:

حتَّى الآن لا يجرؤ أحدٌ أن يُغَيِّر رسم القرآن، تغيَّرت قواعد الرسم وقواعد الإملاء، ولكن بقي القرآن كما هو بالرسم العثماني: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ [آل عمران: ١٣٠]، ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥]، مكتوبة في القرآن (الربوا) (راء باء واو ألف)، وفي الرسم العادي الربا (راء باء ألف)، هذا مقتضى القواعد، وكذلك كتب في القرآن بالرسم العثماني ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، (لام واو وتاء مربوطة) بقي القرآن كما هو، هذا كتاب محفوظ[1].

مسابقات حفظ القرآن:

انظر الآن إلى المسابقات الَّتي تُرصد للقرآن الكريم في بلاد الدُّنيا، شيء هائل، كيف سخَّر الله النَّاس، وجنَّد هؤلاء في مشارق الأرض ومغاربها؛ ليكافئوا حفَّاظ القرآن بمكافآتٍ سخيَّة، وكيف وجدت مراكز تحفيظ القرآن في مساجد الدُّنيا كلها، كلُّ هذا تأكيد لوعد الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

(١) انظر كتابنا: فتاوى معاصرة (١٣/٢)، فتوى: حول الرسم العثماني، نشر المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

إسلام أحد اليهود لمَّا بان له أنَّ القرآن محفوظ:

ذكر الإمام القرطبي: «كان للمأمون ـ وهو أميرٌ إذ ذاك ـ مجلس نظر، فدخل في جملة النَّاس رجل يهودي حسن الثوب، حسن الوجه، طيِّب الرائحة، قال: فتكلَّم فأحسن الكلام والعبارة.

قال: فلما تقوَّض المجلس دعاه المأمون، فقال له: إسرائيلي؟ قال: نعم.

قال له: أسلمْ حتَّى أفعلُ بك وأصنع. ووعده. فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف.

قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلمًا، قال: فتكلَّم على الفقه فأحسن الكلام. فلمَّا تقوَّض المجلس دعاه المأمون، وقال: ألستَ صاحبَنا بالأمس؟ قال له: بلى.

قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفتُ من حضرتك، فأحببتُ أن أمتحن هذه الأديان، وأنت تراني حسن الخط، فعمدتُ إلى التوراة فكتبتُ ثلاث نسخ، فزدتُ فيها ونقصتُ، وأدخلتها الكنيسةَ فاشتُرِيَتْ مِنِّي، وعمدت إلى الإنجيل فكتبتُ ثلاث نسخ فزِدْتُ فيها ونقصتُ، وأدخلتُها البِيعَة فاشتُرِيَتْ مِنِّي، وعمدت إلى القرآن فعملتُ ثلاثَ نسخ، وزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتُها الورَّاقين فتصفَّحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رمَوْا بها فلم يشترُوها؛ فعلمتُ أنَّ هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي.

قال يحيى بن أكثم: فحججتُ تلك السَّنَة، فلقيتُ سفيان بن عُيَيْنة فذكرتُ له الخبر، فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله ﷻ.

QaradawiBooks.com

قال قلتُ: في أي موضع؟ قال: في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، فحفظه اللهُ ﷻ علينا، فلم يضعْ»[1].

يعني طلب منهم أن يحفظوا كتاب الله، فوكَّل الله حفظ التوراة إلى الأحبار والرهبان، فلم يقوموا بحقِّ الحفظ، وأضاعوا كتابه فغيِّر وبدِّل، أمَّا القرآن فلم يَكِلْه الله إلى أحد، ولم يستحفظْه أحدًا، ولكن تولَّى حِفْظَه بنفسه، ولذلك لا يستطيع أحد أن يُغَيِّر فيه أو يُبَدِّل. ولذلك لو أنَّ شيخًا كبيرًا مهيبًا من كبار العلماء أو كبار القُرَّاء غيَّر أو بدَّل أمام صبيان الكتاب لهاج عليه الصبيان.

كما لاحظتُ في صباي أنَّ أحد الصبيان قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قرأها: (وما محمد ﷺ إلَّا رسول)، كلُّ الصبيان هاجوا عليه: لا يوجد ﷺ في القرآن، لا يوجد إلَّا محمَّد، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

الرَّبْط بين طلب المشركين نزول الملائكة ونزول الكتاب على الرسول:

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾

كان المشركون يطلبون من النبيِّ ﷺ على سبيل التحدِّي: أن تنزل الملائكة من السماء لتُصَدِّقه فيما جاء به، وردَّ اللهُ عليهم بأنَّ الملائكة لا تنزل أكثر ما تنزل إلَّا بالعذاب، والله تعالى لا يريد أن يستأصلهم كما استأصل الَّذين من قبلهم، عادًا وثمود.

(١) تفسير القرطبي (٦/١٠).

QaradawiBooks.com

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٨]، يقول الله تعالى: نحن نزلنا عليكم ما ينفعكم ويهديكم، ويأخذ بأيديكم إلى السعادة في الدُّنيا والآخرة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، بدل تنزيل الملائكة بالعذاب نزَّلنا عليكم القرآن، الَّذي يأتيكم بالهدى والنُّور.

التسرية عن الرسول ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]

يخاطب اللهُ سبحانه النبيَّ ﷺ، يُعَزِّيه ويُسَلِّيه عمَّا أصابه من كبراء مشركي قومه، من الاستهزاء والسخرية، حين قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، إذ كبُر في نفوسهم أن يكون كتابه الَّذي يتلوه عليهم ذِكْرًا للعالمين، وأن يكون هو رسولًا للعالمين.

أراد الله أن يُسَرِّي عن رسوله، بأنَّه ليس وحده الَّذي ابتُلي باستهزاء المشركين والمُكَذِّبين، كلُّ الرسل في أقوامهم أصابهم ما أصابه، إذا كان هو عليه الصلاة والسلام قد قيل له: مجنون وساحر وكاهن ومفترٍ، وقيل عن القرآن: أساطير الأولين اكتتبها، إلى آخره، فكذلك رسل الله وأنبياؤه.

وقد حكى القرآن استهزاءهم بالنبيِّ ﷺ فقال: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، لماذا لم ينزل على أحد العظماء

(١) المفعول محذوف دلت عليه كلمة «أرسلنا» أي: أرسلنا رسلًا من قبلك، والشِّيع: جمع شيعة، وهي الطائفة الَّتي تتشيَّع لمذهب أو رجل. والأوَّلون: الماضون من الأمم. والمراد بشيع الأوَّلين: جماعات الكفر والشرك الذين أرسل اللهُ لهم رسلًا من أهل القرون السالفة، فاستهزؤوا بهم.

QaradawiBooks.com

من قريش مثل: الوليد بن المُغِيرة، أو من عظماء الطائف مثل: عُرْوَة بن مسعود الثَّقَفي؟ لِمَ ينزل على هذا الفقير اليتيم؟ ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

استهزاء الأمم المكذِّبة برسل الله:

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

لستَ يا محمَّد وحدَك الَّذي استهزأ به قومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

هؤلاء الرسل وهؤلاء النذر لقوا من قومهم من الاستهزاء والسخرية الكثير، حتَّى حاق بهم ما حاق من عذاب الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠]، استهزؤوا برسلهم من أجل ما عندهم من مال، أو من أجل ما عندهم من جاه، أو من أجل ما عندهم من علم، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣]، استهزؤوا برسلهم فقالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

وقالوا: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ [هود: ٢٧].

وقالوا ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]، أي: الفقراء والمساكين، لم يتبعك الملأ الأشراف والكبراء؛ لأنَّ الكبراء دائمًا يجدون أنَّ

QaradawiBooks.com

الرسالات ضدَّ مصالحهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

المترفون الَّذين يعيشون في هذه الدُّنيا حياة ترف وبحبوحة النعيم، ويأكلون الأموال بالباطل، ويجمعون الأموال، ويبنون القصور بلا حساب، الَّذين يعيشون لهذه الدُّنيا، هم دائمًا أعداء كلِّ رسالة، وخصوم كلِّ دعوة إلى الإصلاح، فهؤلاء كانوا دائمًا ضدَّ الأنبياء عليهم السلام، واستهزؤوا بهم، كما قال فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

وهكذا كان المكذِّبون دائمًا في الأمم: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١١].

كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

انظروا إلى هذا التعبير: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، والرسول لم يأت إلَّا لخيرهم، إلَّا لمصلحتهم، إلَّا لهدايتهم، إلَّا للأخذ بأيديهم إلى سعادة الآخرة والأولى، ومع هذا كانوا به يستهزئون: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وكلمة ﴿كَانُوا۟﴾ تدلُّ على شأنهم، كأنَّ هذا سجيَّة وطبيعة لهم، فلم يستهزؤوا به مرَّة أو مرَّتين، بل ﴿كَانُوا۟﴾، ممَّا يدلُّ على أنَّ الاستهزاء طبعُهم وسجيتُهم، وكلمة

QaradawiBooks.com

﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فعل المضارع يدلُّ على التكرار والتجدُّد، فهم دائمو الاستهزاء بكلِّ رسول يأتيهم من عند الله.

مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾:

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ الضمير عائد إلى أي كلمة؟ هل هو عائد إلى ﴿ٱلذِّكْرُ﴾، يعني كذلك نسلك القرآن في قلوب المجرمين، يسمعون ألفاظه وحروفه، ولكنَّه لا يدخل في قلوبهم.

وكلمة (سلك) أي: أدخل شيئًا في شيء آخر، مثل إدخال الخيط في المِخْيَط (الإبرة)، كما قال سبحانه ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، أي: ما أدخلكم في سقر؟

وهنا: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾: ندخله في قلوب المجرمين، لا دخول النور لمن يستنير به، ولا دخول الهُدى لمن يهتدي به، ولكن دخوله في قلب من يُعرض عن الحقِّ، وينأى بجانبه، وهكذا كان هؤلاء يسمعون القرآن، ولكن لا يسمعون بعقولهم وقلوبهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. أي: شوِّشوا عليه حتَّى لا يسمعه الصبيان والنساء والعبيد، فيتأثَّروا به، هكذا كانوا لا يريدون أن يسمعه أحد سماع المهتدي، سماع من يبحث عن الحقِّ، سماع من يريد أن يقتنع بالأمر إذا كان فيه دلائل بيِّنة وحُجَّة ظاهرة.

وبعض المُفَسِّرين قالوا: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: نسلك الاستهزاء والتكذيب والكفر في قلوب المجرمين، ولم يقل: (في قلوب الكافرين)؛ بل قال: ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ ليُسَجِّل عليهم صفة الإجرام، فمن يقف

QaradawiBooks.com

هذا الموقف، من يرى أمامه الهُـدى ولا يهتدي، ومن يرى أمامه الضوء ولا يسـتضيء، ومن يرى أمامه الحـقَّ ولا يؤمن بـه ويجحده، يقترف جريمة كبرى.

سُنَّة الله في الأوَّلين:

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي: بالذِّكر الَّذي أنزل على النبيِّ ﷺ، ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هم على شاكلة من كان قبلهم من الأمم، الَّذين أرسلت إليهم الرسل فكذَّبوهم: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، كذَّبوا نوحًا، وكذَّبوا هودًا، وكذَّبوا صالحًا، وكذَّبوا شُعَيْبًا، وكذَّبوا لوطًا، إلى آخر الأنبياء، هؤلاء المكذِّبون هذه سُنَّتهم، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أو مضت سُنَّة الأوَّلين؛ لأنَّهم إذا وقفوا هذا الموقف الَّذي يعاند الحقَّ، ويستهزئ به، ويكفر به، ويصدُّ عنه، فإنَّ الله ينزل بهم عقوبته.

هذه أيضًا سُنَّة من سنن الله كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. كيف دمَّر الله عليهم؟

هكذا رأينا تدمير الله لهؤلاء الأقوام، أخذهم أخذ عزيز مقتدر، ونجى الرسل ومن معهم من المؤمنين، كما نجَّى سيِّدنا نوحًا عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩، ١٢٠]، ونجَّى هودًا: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا

QaradawiBooks.com

دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]، ونجَّى صالحًا، ونجَّى شُعَيْبًا، ونجَّى لُوطًا والمؤمنين معه[١].

عناد كفَّار قريش:

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

يُحَدِّثنا القرآن عن عناد هؤلاء القوم من كفَّار قريش، عن مكابرتهم الغليظة، ينكرون الشمس في رابعة النهار، بل أكثر من ذلك. الله تعالى يقول: إنَّهم أرادوا نزول الملائكة لكي يؤمنوا، ولو نزلت الملائكة ما آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، أي: هيَّأنا لهم سبيلًا، ومكنَّاهم من الصعود فيه، ﴿فَظَلُّوا۟﴾ استمرُّوا في زمن مديد ﴿فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي: يصعدون في هذا الباب المفتوح إلى السماء.

والعروج: الارتفاع والصعود، ومنه المعراج النبويُّ، والمراد أنَّهم: يعرجون في هذا الباب المفتوح إلى السماء.

وكلمة ﴿فَظَلُّوا۟﴾، أي: بالنَّهار؛ لأنَّ (ظَلَّ) للعمل في النهار، و(بات) للعمل في الليل، ﴿فَظَلُّوا۟﴾ أي: ضُحى النهار[٢]، ﴿فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾، أي:

(١) وسُنَّة الله الَّتي خلت في الأوَّلين سنة ثابتة؛ لأنَّها مطابقة لاختياره الحكيم، فما أجراه ﷻ في الأوَّلين يُجري نظيره في الآخرين، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

(٢) أي: صاروا يعرجون فيه طوال نهارهم على توالي الدقائق والآناء. فلا يقال: ظلَّ يفعل كذا إلا إذا كان يفعله في النهار. واختير فعل «ظل» هنا للدلالة على وضوح مشاهدتهم لما يمرون به من آيات الله في حالة الارتفاع والصعود؛ لأنَّ النهار كاشف بضوئه للأشياء.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

يصعدون في ملكوت السماء والفضاء، يرون ما فيه من العجائب، تحقيقًا لصدق الرسالة.

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾[1]، أي: رغم هذه الآية البيِّنة الواضحة، لو فتحنا عليهم بابًا إلى السماء عرجوا فيه، حتَّى وصلوا إلى السماء، لقالوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾، أي: سُدَّت. تقول: سَكِّر الباب أي: أَغْلِقْه، أو سُكِّرَتْ أبصارنا: أصبحنا في حالة السُّكْر، وهما معنيان متقاربان.

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾، أي: نحن لم نَرَ الأشياء رؤية حقيقيَّة، وحين تبهرهم المشاهد المدهشة يستدركون فيقولون: ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ أي: إنَّ محمدًا سحرنا بتخييلات لا حقيقة لها، وجعلنا نظنُّ أنَّنا عرجنا إلى السماء وما عرجنا، لا يمكن أن يؤمنوا كما قال تعالى أيضًا: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأنعام: ٧]، كانوا يطلبون نزول كتاب من السماء: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]. أي: لو نزَّلنا عليك كتابًا من السماء، ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾، هو جاء من السماء، ولمسوه بأيديهم، ولو نظروا بأعينهم لردُّوا ذلك، ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، فالعناد هو العناد، والمكابرة هي المكابرة، فليس عندهم علَّة ولا عذر في الحقيقة سوى العناد الباطل، الَّذي يتمسَّك بالباطل، ويرى الحقَّ أمامه واضحًا جليًّا كالشمس في ضحى النهار، ومع ذلك لا يؤمنون.

---

(١) قرأ ابن كثير: (سُكِرَت) بتخفيف الكاف، أي: حُبست ومُنعت النظر، وقرأ الباقون: ﴿سُكِّرَتۡ﴾ بكسر الكاف مع التشديد، أي: سُدَّت، ويحتمل أن يكون مشتقًّا من السكر، فيكون معناه: أُجبرت أبصارنا فرأينا الأمر على غير حقيقته، أو من السَّكْر وهو السد، فيكون معناه: منعت أبصارنا من النظر بسبب السِّحْر.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثاني

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۞ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۞ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۞ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۞ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۞ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۞ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ۞ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ٢٥].

الآيات الكونيَّة في السماوات والأرض:

لا زلنا مع هذه السورة المكيَّة الكريمة: سورة الحِجْر، وما زلنا مع الآيات والدلائل الَّتي ساقها الله إلينا لنعتبر بها ونتَّخذ منها عظة، ولنعرف منها وحدانيَّة الله، وقدرته وإبداعه وحكمته وكماله واتِّصافه بأسمائه الحسنى.

ذكر الله عددًا من الآيات والدلائل الَّتي تدلُّ على وحدانيَّته وقدرته وحكمته في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ هذه هي الآية الأولى.

والآية الثانية من آيات الله: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۞ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والآية الثالثة: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

والآية الرابعة من آياته الدالَّة على قدرته وحكمته: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

والآية الخامسة: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾.

والآية السادسة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

والآية السابعة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

فهذه الآيات الكونيَّة المذكورة وما فيها من بدائع الصنع وغرائب القدرة، تُغْني عن فتح الباب في السماء لصعود المكابرين.

لقد ذكر الله سبحانه في هذه الآيات الدلائل الكونيَّة على الحقائق الَّتي جاء بها محمَّد، وهم يجحدونها وينكرونها عنادًا، جاء محمَّد بالتوحيد، وبترك عبادة الأصنام، الَّتي لا تغني عنهم شيئًا، لا تُبصر ولا تَسمع، ولا تضرُّ ولا تنفع، ولا تَصِلُ ولا تقطع، فجاء بالتوحيد الَّذي بعث به الأنبياء جميعًا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وجاء بالبعث بعد الموت، وأنَّ هذه الدُّنيا ليست هي الدار الوحيدة، إنَّما هي دارُ ممرٍّ، ولكنَّ هناك دارَ مَقَرٍّ، هنا الزرع وهناك الحصاد، هنا العمل وهناك الحساب، هذه الدار محدودة نعيش فيها أيامًا ثمَّ نفارقها بالموت،

QaradawiBooks.com

وليس المـــوت نهاية المطاف، والموت رحلة مـــن دار إلى دار، قال الشاعر:

وما المـــوت إلَّا رحلةٌ غيـــرَ أنَّها من المنزلِ الفاني إلى المنزلِ الباقي[1]

وقال عمر بـــن عبد العزيز رضي الله عنه: إنَّمـــا خُلقتم للأبد، وإنَّمـــا تُنْقَلون بالموتِ من دارٍ إلى دار[2].

جاء الرســـول ﷺ بهذين الأمرين: التوحيد، والجزاء في دار الخلود: الجنَّة أو النَّار، وهم يُكَذِّبون بهذا وذاك.

والقرآن كان دائمًا يقيم دلائل كونيَّة، الآيات الَّتي بثَّها الله في الكون، في الآفاق، ليشهدوا عظمة الله وقدرته، وهنا ذكر القرآن في هذه السورة عددًا من هذه الآيات الكونيَّة العظيمة، الَّتـــي تدلُّ على عظمة صاحبها، وعلى رَوْعة خَلْقها، وعلى إبداع هذا الكون.

عالم السماوات:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۞ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۞ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾

هذا العالم ـ عالم السماوات ـ عالَمٌ عظيم لا يعلمه إلَّا الله، أظهر لنا علم الفلك الحديث شـــيئًا من سَعَة هذا الكون، الأرض الَّتي نحن عليها هي شيء صغير في المجموعة الشمســـيَّة، يعني مساحة الأرض بالنسبة للشـــمس ضئيلة جدًّا، والمجموعة الشمسيَّة بالنسبة للمجرَّة ضئيلة جدًّا. والمجرَّة بالنسبة لسائر المجرَّات ضئيلة جدًّا.

(١) من شعر أبي العتاهية. انظر: الإعجاز والإيجاز للثعالبي صـ ١٥١، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.
(٢) رواه أبو نُعَيْم في حلية الأولياء (٢٨٧/٥).

QaradawiBooks.com

بروج السماء:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[١] والبروج: هل هي الكواكب أم هي المنازل الَّتي تسير فيها الكواكب والشمس[٢]؟

والبروج تدلُّ على عظمة هذه السماء، والأصل في البرج هو البناء الكبير العالي كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

والبروج في السماء بناء عظيم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقد سُمِّيَتْ بروجًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

إبراز عنصر الجمال في الكون:

﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾

زيَّن الله السماء وجمَّلها، فحين تنظر إلى السماء وزُرْقتها الهادئة، وسُحُبها الموزَّعة، ونجومها البديعة، تستمتع بهذا النظر، وهذا يدلُّنا على

---

(١) أصل معنى البروج في اللغة: القصور العالية المتطاولة في السماء. ويقال في اللغة: بَرَج الشيء يبرُجُ بروجًا، أي: ارتفع وظهر. ويقال: تبرَّجت السماء، أي: ازَّيَّنت بالكواكب. وأُطلقت البروج على منازل الكواكب والنجوم السيَّارة. فمن دلائل قدرة الله سبحانه: أنَّه أتقن حركة الأرض في مقابل مواقع النجوم في السماء إتقانًا بديعًا، يتمكَّن به الناس في الأرض من تحديد منازل في السماء تظهر فيها الشمس، ويعرفون بها بدأ السنة الشمسيَّة ونهايتها، وأقسام شهورها وفصولها الأربعة.

(٢) أطلق العرب كلمة «بروج» على مواقع أو منازل في السماء تخيَّلوا أنَّها منازل للشمس، وجعلوها اثني عشر موقعًا، بعدد شهور السنة الشمسيَّة؛ إذ تعود في نهاية السنة الشمسيَّة إلى الموقع الأول الذي رصدوه في أولها. وأطلقوا على المسافة الَّتي تخال الشمس قد اجتازتها في السنة «دائرة البروج».

QaradawiBooks.com

اهتمام القرآن بإبراز عنصر الجمال في الكون، وإبراز الجمال في السماء، وإبراز الجمال في الأرض، وإبراز الجمال في الحيوانات، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٥، ٦]، الإبل والأبقار والأغنام حين يذهب بها الراعي ويعود بها. انظر إلى هذه اللوحة، ما أجملها!

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، كل شيء في هذا الكون مُتْقَن، ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

ويلفت النظر إلى عنصر الجمال في النبات: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]، أي: ذات جمالٍ ورَوْعة.

وكذلك الجمال في السماء: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، أي: لا يوجد فيها شُقوق ولا عيوب، وكذلك كلُّ ما خلق الله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

فالقرآن يهتمُّ بعنصر الجمال والزينة: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

ويقول سبحانه عن البحر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤].

عناصر الجمال في الكون يهتمُّ القرآن بها، الجمال في الإنسان والحيوان والنبات والسماء والأرض، لهذا اهتمَّ القرآن بعنصر الزينة، كما قال الله تعالى في سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥].

QaradawiBooks.com

قال قتادة: خَلَق هـذه النُّجوم لثلاثٍ: جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمن تأوَّل فيها بغير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبَه، وتكلَّف ما لا علم له به[1].

حفظ السماء من كلِّ شيطانٍ رجيم:

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾

أي: حمينا السماء من الشيطان الرجيم، ومنعناه من دخولها، فلا يستطيع الشيطانُ أن يسمع الملائكة وهي تنزل بوحي الله من السماء: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾، حفظ الله السماء من كلِّ شيطانٍ مرجومٍ ملعونٍ مطرودٍ من رحمة الله.

والشيطان مخلوق من النَّار، وهو من الجنِّ، والجنُّ مكلَّفون كما كُلِّف الإنس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، منهم الصالح والطالح، ومن هؤلاء الطالحين: الشياطين الَّذين سلَّطهم الله على بني آدم، يوسوسون لهم، كما ذكر الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، أمَّا عباد الله الصالحون، فليس له عليهم أي سلطان، ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، يغويهم بالوسوسة.

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، لا يستطيع الشيطان أن يسمع الملائكة وهي تنزل بوحي الله من السماء.

---

(١) رواه البخاري تعليقًا، في بدء الخلق (١٠٧/٤). ورواه الطبري في التفسير موصولًا (٥٠٨/٢٣).

QaradawiBooks.com

استراق الشياطين السمع قبل بعثة النبيِّ ﷺ:

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾

كان كهَّان العرب في الجاهلية قبل الإسلام يستطيعون أن يخبروا ببعض الغيوب، عن طريق الشياطين الَّذين يسترقون السمع، ويسمعون بعض الكلام في السماوات، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل أناسٌ رسول الله ﷺ عن الكُهَّان؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ليسوا بشيء**».

قالوا: يا رسول الله، فإنِّهم يحدِّثون أحيانًا الشيء يكون حقًّا.

فقال رسول الله ﷺ: «**تلك الكلمةُ من الجنِّ، يخطفها الجِنِّي، فيقُرُّها في أذن وليِّه قَرَّ الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة**»[1]. فالكهنة هم الكذَبة، كما أخبر النبيُّ ﷺ أنَّهم ليسوا بشيء.

نزول الشُّهُب على مسترقي السمع بعد البعثة المحمَّديَّة:

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ أي: استمع مستخفيًا، مأخوذ من السرقة، وهي أخذ الشيء خفية ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾، لحقه بسرعة وقوَّة ﴿شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾: ظاهر واضح لكل مبصر، أي: شعلة ساطعة من النَّار، تنزل عليه فتحرقه، وخصوصًا بعد بعثة النبيِّ ﷺ، كما قال الله تعالى على لسان الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾ [الجن: ٨]، أي: إنَّ السماء محروسة ومحصَّنة: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩]، فهذا كان الحال بعد بعثة النبيِّ ﷺ: ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ۞ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٢١٣)، ومسلم في السلام (٢٢٢٨)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

آيات في عالم الأرض:

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾

بعد ذكر الآيات السماويَّة الَّتي تتعلَّق بالعالم العلوي، ذكر سبحانه آيات تتعلَّق بالعالم السفلي، أي: الأرض الَّتي نعيش عليها، وذكر فيها ثلاث قضايا: الأولى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾، والثانية: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾، والثالثة: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾.

الأرض مبسوطة ومكوَّرة:

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾

أي: بسطناها[1]. وفي بعض الآيات جعل الأرض فراشًا، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٢]، وتارة مهادًا، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦]، وتارة بساطًا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ [نوح: ١٩] أي: مبسوطة[2]، صالحة للعيش فيها، صالحة للحياة البشريَّة عليها، كما قال ﷻ على لسان سيِّدنا نوح: ﴿ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠]، كيف هذا وهي مكوَّرة، ونحن نعلم الآن أنَّ الأرض مكوَّرة، فهو أمر ثابت عند علماء المسلمين وعلماء الكلام.

---

(١) أي: جعلناها ذات امتداد في بُعدين متقابلين منها. ويقال لغة: تمدَّد الرجل، أي: تمطَّى وتطاول. وأصل المدِّ في اللغة: الجذب. ومن معاني المد أيضًا: مدُّ الأرض بالخيرات والمعادن والعناصر النافعة للعباد. تقول لغة: «مَدَدْتُ الأرضَ مدًّا» إذا زدتَ فيها ترابًا أو سمادًا من غيرها، ليكون أعمرَ لها، وأكثر رَيْعًا لزرعها. ويقال للسَّماد والرِّمال: مداد الأرض.

(٢) أي: غير محدَّبة ولا مقعَّرة ولا مائعة رَجْراجة، مع ما فيها من التكوُّر والمنعطفات والتعرجات، ومجامع المياه، لتتيسر عليها حياة البشر.

QaradawiBooks.com

ابنُ حزمٍ يثبت كرويَّة الأرض:

ذكر ابن حزم (ت٤٥٦هـ) ما يثبت كرويَّة الأرض بأدلَّة في كتابه: «الفِصَل في الملل والنِّحَل»: «قالوا: إنَّ البراهين قد صحَّت بأنَّ الأرض كرويَّة، والعامَّة تقول غير ذلك.

وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إنَّ أحدًا من أئمَّة المسلمين المستحقِّين لاسم الإمامة بالعلم ﷺ لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يُحفظ لأحدٍ منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسُّنَّة قد جاءت بتكويرها، قال الله ﷻ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥]، وهذا أوضح بيانٍ في تكوير بعضها على بعض، مأخوذ من كور العمامة، وهو إدارتها. وهذا نصٌّ على تكوير الأرض ودوران الشمس كذلك، وهي الَّتي منها يكون ضوء النَّهار بإشراقها، وظلمة الليل بمَغِيبها، وهي آية النهار بنصِّ القرآن، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]»[1].

جواب الإمام الرازي عن بسْط الأرض وكرويَّتها:

قال الإمام الرازي: «فإن قيل: هل يدلُّ قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ على أنَّها بسيطة؟

قلنا: نعم؛ لأنَّ الأرض بتقدير كونها كُرَة، فهي كرة في غاية العظمة، والكرة العظيمة يكون كلُّ قطعة صغيرة منها إذا نُظر إليها فإنَّها تُرى كالسَّطْح المستوي، وإذا كان كذلك زال ما ذكروه من الإشكال، والدليل

(١) انظر: الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل لابن حزم (٩٧/٢)، نشر دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

QaradawiBooks.com

عليه قولـــه تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧]، ســـمَّاها أوتـــادًا، مع أنَّه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية، فكذا هاهنا»[(١)].

ومن أدلَّة ذلك: أنَّها لو لم تكن كروية لكان لها أطراف في الشرق وفي الغرب والشمال والجنوب، إذا مشينا سنصل إلى حرف، وأمامنا فراغ، ولم يقل أحد بذلك، فهي كرة، ولكنَّها مبسوطة ومفروشة ليعيش عليها الناس.

تثبيت الأرض بالجبال:

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾: جبالًا ثوابت رواســـخ، أي: ثبَّتناها بالجبال؛ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحـــل: ١٥] أي: حتَّى لا تضطـــرب ولا تتحرَّك بكم، فالجبال كالأوتاد للأرض، كمـــا قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧]، وعلماء الجيولوجيا في عصرنا مثل الدكتور زغلـــول النجَّار وأمثاله هم الَّذين بيَّنوا لنا فائدة الجبال في الأرض، وترسيخها كي لا تضطرب ولا تميد بهم[(٢)].

آية الله في إنبات الموزونات في الأرض:

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾

بعد تثبيت الأرض بالجبال الرواسي حتَّى لا تميد، وبسطها، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض، ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ كيف يكون كلُّ شيء موزونًا؟

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي (١٧٠/١٩)، نشر المطبعة البهيَّة المصريَّة، ط١، ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.

(٢) انظر: موســـوعة الإعجاز العلمـــي: الأرض فـــي القرآن الكريـــم للدكتور زغلـــول النجار صـ ٢٢٢ ـ ٢٣٠، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

اختلف المُفَسِّـرون القدماء في هذه اللفظة، قال بعضهم: إنَّها تنبت حبوبًا وثمارًا توزن. وقال آخرون: لا، موزون يعني منضبطًا، يعني مقدرًا، فالوزن هنا وزن أدبي أو معنوي.

وقال الإمـام الـرازي: «والله تعالى إنَّمـا يخلق المعـادن والنبات والحيوان بواسـطة تركيب طبائع هـذا العالم، فلا بـدَّ وأن يحصل من الأرض قدر مخصوص، ومن الماء والهواء كذلك، ومن تأثير الشـمس والكواكب في الحرِّ والبرد مقـدار مخصوص، ولو قدَّرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص أو النقصان عنه، لم تتولَّد المعادن والنبات والحيوان، فالله ﷻ قدَّرها على وجهٍ مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته، فكأنَّه تعالى وزنها بميزان الحكمة، حتَّى حصلت هذه الأنواع»[1].

إنَّ كلَّ شـيءٍ في الكون بقدر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمـر: ٤٩]، تقدير معلوم، ليس هناك شيء اعتباطي، ولا شيء عبث، كل شيء مُقَدَّر: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وفي عصرنا يقول علماء الجيولوجيا وعلمـاء النبات: كلُّ نبتةٍ تأخذ غذاءها من الأرض بميزان، أملاح بنسـبةٍ معيَّنة، ومـاء ومعادن وحديد بنسـبة معيَّنة، كلُّ شـيءٍ بموازين معيَّنة، كلُّ شـيء في الدُّنيا موزون: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمٰـن: ٧ ـ ٩]، إذا اختـلَّ ميـزان الكون فسدت البيئة: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي (١٧١/١٩، ١٧٢).

QaradawiBooks.com

تأمين المعاش في الأرض للإنسان والحيوان:

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾

جعلنا لكم في الأرض معايش، أرزاقًا تعيشون منها وتحْيَون بها من طعام موفور، وثياب سابغة، ومأوى تأوون إليه، مكَّنكم الله سبحانه منه، فالله ﷻ ضمن لكلِّ مخلوق رزقه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وقبل أن يُحَدِّثنا الله عن خلق آدم قال في سورة الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠]، ثمَّ قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ [الأعراف: ١١]، قبل آدم وتصويره، مكَّن الله له في الأرض، وجعل فيها معايش، كما قال الله تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]، حين خلق الله الأرض قدَّر فيها أقواتَها، معايش للنَّاس مضمونة وموزونة.

المتشائمون من زيادة عدد البشر:

يرى الاقتصادي الإنجليزي المشهور (روبرت مالتوس ت١٨٣٤م) ـ وكان متشائمًا ـ أنَّ البشر ينمون بمتوالية هندسيَّة (٠، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤... وهكذا) بينما يزيد الإنتاج وَفْق متوالية حسابيَّة (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧.... وما شابه)، ممَّا سيؤدي حتمًا إلى عدم كفاية الموارد للنَّاس. فكان يدعو إلى تحديد النسل من قرنين مضيا. ولكن أثبت الواقع أنَّ الأرض فيها متَّسع، فالبحار ـ أربع أخماس الأرض ـ فيها ثروات لم يستطع النَّاس أن يستفيدوا منها بعد.

QaradawiBooks.com

فالأرزاق في الأرض موجودة، والله هيَّأ فيها المعايش. هذه مادَّة يائيَّة، ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾، ومعايش: جمع معيشة، لا تجمع على معائش[1]، أي: معايش تكفيكم وتغنيكم؛ لأنَّه ﷻ أحكم من أن يخلق الخلق ثمَّ يدعهم ولا يضمن لهم معايشهم.

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾، جعلنا لدوابِّكم وأولادكم وخدمكم وكل ما يحيط بكم معايش في هذه الأرض مثلكم.

هيَّأ الله لهم المعايش في هذه الأرض، كما قال الله تعالى بالنسبة للأولاد: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، الرزَّاق هو الله ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٧، ٥٨]، فالله الرزَّاق، فلا تعتقدوا أنَّكم ترزقون أحدًا.

خزائن الله سبحانه ملأى:

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[2]

ما من شيءٍ من الأشياء في الكون كله، من نباتات وحيوانات ومعادن، وممَّا في البرِّ والبحر ممَّا يتخيَّل الإنسان، إلَّا عندنا خزائنه في علمنا وقُدْرتنا وتصرُّفنا.

خزائن الله ومفاتيحها بيد الله ﷻ، وهي خزائن واسعة، أي: لا يخطر ببالنا سعة خزائن الله: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٧]،

(١) لأن ياءها أصلية فهي من مادة (عيش) بخلاف صحيفة فتجمع على صحائف بالهمز؛ لأن ياءها زائدة.

(٢) أصل الخزانة هي ما يحفظ فيها الشيء النفيس، وهي هنا كناية عن كلِّ ما يُنتَفع به.

QaradawiBooks.com

خزائن الله ﷻ بيده، كلُّ شـــيء بيده: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

من فضـــل الله ورحمته: أنَّه لـــم يجعل مفاتيح خزائنـــه بيد أحد من الخلق؛ لأنَّ الخلق أشِـــحَّاء، ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النســاء: ١٢٨]، فلو كانت مفاتيح خزائن الله بيد أحدٍ من البشـــر كنَّا ســـنموت جوعًا، وفي الحديث القدسيِّ الَّذي رواه مسلم، عن أبي ذرٍّ: «**يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنسكم وجِنَّكم، اجتمعوا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كلَّ واحدٍ مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، إلَّا كما ينقص المِخْيط إذا أُدْخِـــل البحر**»(١). والمِخْيـــط: الإبرة. لو أدخلت الإبـــرة في المحيط الهادي أو الخليج أو البحر الأحمر، ماذا تَنْقُص منه؟

آيات الله الكونيَّة في القدر المعلوم:

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾

رزق الله ﷻ واسع: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾، أي: بمقدار حاجة البشـــر ومصالح البشـــر، وكل شـــيء بقدرٍ معلوم، ولا يكون تنزيله لأيِّ شيء جُزَافًا، دون تقدير حكيم.

بعض علمـــاء الطبيعـــة والرياضيَّات فـــي أمريكا ذكـــروا في كتاب «الإنسان لا يقوم وحده» باللغة الإنجليزية الذي ترجم إلى العربيَّة تحت عنوان «العلم يدعو إلى الإيمان» أنَّه «لا بـــدَّ للحياة فوق أرضنا هذه من شروط جوهريَّة عديدة، بحيث يصبح من المحال حسابيًّا أن تتوافر كلُّها بالروابط الواجبة، بمجرَّد المصادفة على أيِّ أرض، في أيِّ وقت. لذلك

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥).

QaradawiBooks.com

لا بـــدَّ أن يكون في الطبيعـــة نوع مـــن التوجيه الســـديد، وإذا كان هذا صحيحًا، فلا بدَّ أن يكون هناك هدف.

تلك الحزمة من الكون الَّتي نُسمِّيها بالكُرة الأرضيَّة، إنَّها جسم لا أهمية له في نظر الفلك، ومع ذلك يمكن القول بأنَّها أهمُّ جسم حتَّى الآن.

ويجب أن نفرض أنَّ الكـــرة الأرضيَّة مكوَّنة من بعض العناصر الَّتي توجد في الشـــمس، لا في أي كوكب آخر، وهذه العناصر مقسَّمة على الكرة الأرضيَّة بنســـب معيَّنة، قد أمكن التحقُّق منها لدرجة مقبولة فيما يتعلَّق بالسطح.

وقد حُوِّلت جملة الكرة الأرضيَّة إلى أقسامٍ دائمة، وحدود حجمها، وســـرعتها في مدارها حول الشـــمس هي ثابتة للغايـــة، ودورانها على محورها قد حُدِّد بالضبط، لدرجة أنَّ اختلاف ثانية واحدة في مدى قرن من الزمان يمكن أن يقلب التقديرات الفلكيَّة.

ولو أنَّ حجم الأرض كان أكبر ممَّا هو عليه، أو أصغر، أو لو أنَّ سرعتها مختلفة عمَّا هي عليه، لكانت أبعد أو أقرب من الشـــمس ممَّا هي، ولكانت هذه الحالة ذات أثر هائـــل في الحياة من كلِّ نوع، بما فيها حياة الإنســـان. وكان هذا الأثر يبلغ من القوَّة، بحيـــث إنَّ الكرة الأرضيَّة لو كانت اختلفت من هذه الناحية أو تلك إلى أيَّة درجة ملحوظة لَمَا أمكن وجود الحياة فوقها.

ومن بين كلِّ الكواكب الســـيَّارة نجد أنَّ الكرة الأرضيَّة ـ فيما نعلم الآن ـ هي الكوكب الوحيد الَّذي كانت صلتُه بالشـــمس سببًا في جعل نوع حياتنا ممكنًا.

والمتَّفق عليـــه الآن عمومًا، أنَّ الحياة لم توجـــد قط، ولا يمكن أن توجد، في أي شكل معروف، على أي كوكب سيَّار غير الكرة الأرضيَّة.

QaradawiBooks.com

لذلك لدينا في البداية الأولى كوطن للمخلوقات البشـريَّة كوكب سيار صغير، قد أصبح بعد سلسلة تغييرات في مدى بليوني سنة أو أكثر مكانًا صالحًا لوجود الحياة الحيوانيَّة والنباتيَّة، الَّتي توجد بالإنسان.

وتدور الكرة الأرضيَّة حول محورها مرَّة كلَّ أربع وعشرين ساعة، أو بمعدل نحو ألف ميل في السـاعة، والآن افرض أنَّها تدور بمعدل مائة ميل فقط في السـاعة، ولم لا؟ عندئذٍ يكون نهارنا وليلنا أطول ممَّا هو الآن عشر مرات، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارَّة نباتاتنا في كلِّ نهار، وفي الليل قد يتجمَّد كلُّ نبتٍ على الأرض.

إنَّ الشمس الَّتي هي مصدر كلِّ حياة، تبلغ درجة حرارة مسطحها (١٢٠٠٠) درجة فهرنهايت، وكرتُنـا الأرضيَّة بعيدة عنها إلى حدٍّ يكفي لأنْ تمدَّنا هذه «النَّـار الهائلة» بالدفء الكافـي، لا بأكثر منه. وتلك المسافة ثابتة بشـكلٍ عجيب، وكان تغيُّرها في خلال ملايين السنين من القلَّة، بحيث أمكن اسـتمرار الحياة كما عرفناهـا. ولو أنَّ درجة الحرارة على الكرة الأرضيَّة قد زادت بمعدل خمسـين درجة في سنة واحدة، فإنَّ كلَّ نبت يموت، ويموت معه الإنسان حرقًا أو تجمدًا»[1] إلى آخره.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، ويقول الله عن إنـزال الماء بقـدر: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، أي: لو نزل الماء كثيرًا لغرق

(١) العلم يدعو إلى الإيمان للأسـتاذ كريسـي موريسـون صـ ٥١ ـ ٥٥، ترجمة محمود صالح الفلكي، نشـر مكتبة النهضة المصريَّة، القاهرة، ط ٧، ١٩٧٨م. وموضـوع الكتاب ردٌّ على كتاب: الإنسان يقوم وحده لجوليان هكسـلي، أحد الملاحدة الذي زعم أنَّ الإنسان وُجد بلا خالق. وكريسي موريسون هو رئيس سابق لأكاديمية العلوم والمعهد العلمي بنيويورك.

QaradawiBooks.com

النَّاس، ولو قلَّ الماءُ لهلك النَّاس؛ لأنَّ الماء سببٌ للحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٨]، علم عليم، وخبرة خبير، لا يخفى عليه شيء، كلُّ شيء عنده بمقدار.

آيات الله تعالى في الريح والرياح:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾

هذه آية من آيات الله ﷻ، حيث يسوق الرياح بُشرًا بين يدي رحمته، بين يدي المطر. سَوْق الرياح لواقح، كالنَّاقة الَّتي تحمل في بطنها حملها، أو المرأة الَّتي تحمل، لواقح أي: حوامل بالماء، كما قال ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾، أي: بالماء، ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

فالرياح تحمل الماء، وكأنَّها ملقحة بالماء، هذا هو المراد باللقاح هنا، وليس المراد: الرياح لواقح كما ذكر بعض المُحْدَثين والمعاصرين: أنَّ الرياح تلقح الشجر. هذا صحيح من الناحية العلميَّة، ومن الناحية الواقعيَّة، الرياح تلقح الشجر، تنقل حبوب التذكير إلى حبوب التأنيث، وحبوب التأنيث إلى حبوب التذكير، وهذا ممَّا أثبته العلم الحديث، وأنَّ كلَّ الكائنات الحيَّة فيها ذكور وفيها إناث، فيها مذكَّر وفيها مؤنث، ولا بدَّ أن تنقل حبوب هذا إلى ذاك، والرياح لها تأثير في ذلك.

قاعدة الزوجيَّة في الكون:

كان النَّاس يجهلون تلك الحقيقة الَّتي أثبتها القرآن حينما قال:

QaradawiBooks.com

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦]، وقرَّر هذه القاعدة الكليَّة في سورة الذاريات حينما قال: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، خلقنا زوجين، أي: ذكرًا وأنثى، أو موجبًا وسالبًا، حتَّى الذرَّة الَّتي هي وحدة البناء الكونيِّ لهذا العالم، فيها بروتون وإلكترون، أو شحنة كهربائيَّة موجبة وشحنة كهربائيَّة سالبة، هذا الكون قائم على هذا التقابل وهذا الازدواج، قاعدة الزوجيَّة قاعدة عامَّة في هذا الكون، كلُّ شيء مزدوج، ليس هناك واحد إلَّا الله، وما عدا الله كلُّه مزدوج، يكمِّل بعضه بعضًا بالتقابل.

دلالة السياق على معنى ﴿لَوَٰقِحَ﴾:

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾، ليس المراد منها ـ كما قلنا ـ أنَّها تلقح الشجر والنبات، وإن كانت هذه حقيقة، إنَّما تَلْقَح بالماء، لواقح بالماء أي: حوامل بالماء، والسياق يُقرِّر ذلك.

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً (١) فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾(٢)

---

(١) جاءت عبارة ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ بعد بيان إرسال الرياح لواقحَ بحرف «الفاء» الدالَّة على الترتيب مع التعقيب، للدلالة على أنَّ الرياح بما تحمل من جسيمات صلبة صغيرة جدًّا تكون بمثابة التلقيح لبخار الماء في السحاب بوساطة الجُسَيْمات؛ إذ تتكوَّن حولها حبَّات المطر أو الثلج أو البَرَد، وعقب ذلك ينزل الماء من السماء، بتدبير الله الحكيم.

(٢) يخاطب الله سبحانه الناس بضمير المتكلِّم العظيم، ويبين لهم أنَّه هو الذي أسقاهم الماء الحلو العذب بتدبيراته الحكيمة، إذ جعل البخار يتصاعد في الجوِّ بفعل الحرارة الَّتي تمدُّ بها أشعَّة الشمس، ويكوِّن سحبًا، وأرسل الرياح حاملًا لجسيمات اللقاح، فاجتمعت حولها حبَّات المطر، فثقلت بالتكاثف، فقويت جاذبية الأرض على اجتذابها إليها، فنزلت ماء عذبًا سائغًا للشاربين.

QaradawiBooks.com

﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾[1]، سواء أنتم أو أنعامكم، ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣]، [عبس: ٣٢]، تشربون أنتم ودوابكم وبهائمكم وكل ما حولكم.

والله ﷻ أنزله من جهة السماء من السحاب، ماءً صالحًا للشرب، كان يمكن أن يكون هذا الماء غير صالح للشرب ونموت من العطش، ولكن كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠]، ربنا هو الَّذي أنزله من السحب وليس نحن: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، أي: لولا تشكرون هذه النعمة.

كما قال في آية أخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

فلو كان نزول الماء من غير حساب، كان سيغرق الدُّنيا فلا نستطيع أن نشرب منه، ولا نحيي به الأرض، ولا نزرع زرعًا، كما في الآية السابقة: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

حفظ الماء العذب:

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[2]

لم يحفظ النَّاس قديمًا الماء العذب في خزانات، والآن تمكَّن

(١) ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ الفاء عاطفة على ﴿أَنزَلْنَا﴾، وجعل الخطاب بالسقي للنَّاس مع أنَّه سقي الزرع والعشب والأشجار والإنسان؛ لأنَّ سقي الإنسان أعظم وأقوى، ولأنَّ سقي ما عدا الإنسان هو للإنسان في غايته ونهايته، فكان الإسقاء للإنسان في الابتداء والانتهاء.

(٢) الباء في قوله سبحانه ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾ لاستغراق النفي، أي: ليس لكم أيُّ عمل في خزن هذا الماء في السحاب، وكأنه شبَّه السحاب بمخزن للماء خُزِن فيها، إذ يخرج من الأرض بخارًا ثم يتكاثف فيها، ثم يوزعه سبحانه في الأرض.

QaradawiBooks.com

النَّاس أن يقيموا خزانات فوق بيوتهم تجمع الماء وتحفظه يومًا أو اثنين أو ثلاثة، إنَّما أن ينشئوا خزانات للمياه الَّتي تروي الأرض، وتسقي الزرع، وتسقي البهائم، وتسقي النَّاس، فلا، وهذا معنى ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾، الله هو الَّذي يخزنه عنده، وينزله بقدر، ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾.

آيات الله في الإحياء والإماتة:

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾[1]

الله وحده هو الَّذي يُحيي ويُميت، يوجد الحياة في فاقدها، ويزيل الحياة ممَّن هي فيه. الحياة الحقيقيَّة والإماتة الحقيقيَّة من أفعال الله وحده في كونه، وليس كما فعل نمروذ حينما قال لإبراهيم إذ حاجَّه في ربِّه: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال إبراهيم لنمرود: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فقال نمرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾، ثمَّ جاء برجلين من عُرض الطريق، وحكم عليهما بالإعدام بدون جريمة، بدون أي شيء. فقال: حكمت عليهما بالإعدام. وجاء بالسيَّاف، وقال له: اضربْ عنق هذا. فقتله، وعفا عن الثاني، وقال له: عفوتُ عنك. وقال لإبراهيم: أحييتُ هذا، وأمتُّ هذا، فأنا أحيي وأميت.

---

(١) في هذه الآية قصران: قَصْر الإحياء والإماتة على الله ﷻ. وقصر وراثة كُلِّ شيء على الله ﷻ، بمعنى ظهور مِلْكيَّة الله لكلِّ شيء في الأكوان؛ لأنَّ الله سبحانه إذا أمات كلَّ الأحياء ظهر انفراده في الملك، وسقطت المِلْكيَّات الصوريَّة الَّتي كان قد منحها لعباده. وفي الجملتين قصر حقيقي، من قصر صفة على موصوف، وأداة القصر فيهما تعريف طرفي الإسناد.

QaradawiBooks.com

فسيِّدنا إبراهيمُ لم يردْ أن يجادله: ما معنى الإحياء؟ وما معنى الإماتة؟ هناك شيء في علم الجدل يسمَّى الانتقال من دليل إلى دليل، من دليل واضح إلى دليل أوضح منه، من دليل غامض إلى دليل واضح: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فالإحياء الحقيقي والإماتة الحقيقيَّة هي بيد الله ﷻ، الله هو الَّذي يُحيي الأرض، وهو الَّذي يُحْيي الكائنات المختلفة، في البحر، وفي البر، الزواحف والطيور والحشرات والإنسان، كل هذا من الَّذي يحييه؟ إنَّه الله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

الذي يُحْيي الأرض هو الله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۞ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

الثمرة هذه من الَّذي خلقها؟ من الَّذي فجَّر العيون؟ ومن الَّذي أجرى الأنهار؟ ومن الَّذي أنزل الماء وأحيا الأرض؟

إنَّه الله الخالق الرازق المدبِّر الحكيم: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ هذا عمل يد الله، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۞ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣]، من عمل يد الله، إحياء الأرض، وإحياء النباتات، وإحياء الحيوانات، وإحياء الإنسان، هو من عمل الله ﷻ، ليس من عمل الطبيعة.

QaradawiBooks.com

يقول الماديُّون: هذا من شـغل الطبيعة، هي الَّتي تعمل هذه الأمور. وقالوا: إنَّ مواد الحياة موجودة في الطبيعة.

وهنا نقول لهم ولمن على شـاكلتهم: من الَّذي أنـزل خليَّة الحياة الأولى؟ من الَّذي أنزلها وأصبحت تتوارث بعد ذلك؟ إنَّه الله ﷻ.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ [الحجر: ٢٣] كل إنسـان، وكل حيوان يموت في موعده في أجله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١].

مؤكِّدات الإحياء والإماتة:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾

هذه الصيغة المؤكَّدة، قلنا قبل ذلك في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾، فيها عدة تأكيدات: جملة اسميَّة، ثمَّ تأكيدها بإنَّ، ثمَّ اللام في ﴿لَنَحْنُ﴾ إلى آخره. وهنا ﴿إِنَّا﴾، ثـمَّ اللام ﴿لَنَحْنُ﴾، و«نحن» ضمير فصل يعني زيادة في الجملة.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ كلها تأكيدات أنَّ هذا الأمر بيد الله وحده، وليس بيد أحدٍ من خلقه.

الله ﷻ هو الوارث:

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾

الوارث هو الَّذي يبقى بعد الميت لينتفع بتركته، وليرث أملاكه، والله سـبحانه هو الباقي بعد فناء الخلائـق جميعًا، وهو الَّـذي يرثهم، كما قـال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريـم: ٤٠]، الله هـو

QaradawiBooks.com

الوارث: ﴿نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]، تهلك الأمم وتنتهي، والذي يرثها هو الله، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]، فهو سبحانه المالك لكل شيءٍ بدءًا وختامًا، وهو المالك لذوات المالكين.

علم الله سبحانه الشامل بالمتقدِّمين والمتأخِّرين:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾

﴿وَلَقَدْ﴾: اللام هذه موطئة للقسم، يعني كأنَّه قسم، و«قد» هنا للتحقيق. «قد» أحيانًا تأتي للتقليل إذا دخلت على المضارع، كقولنا: قد يحدث كذا، قد يجود البخيل، قد يصدق الكذوب. فتكون «قد» هنا للتقليل، فإذا دخلت على الماضي تفيد التحقيق، مثل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، «قد قامت الصلاة»، إلَّا في أفعال الله تعالى فإنَّها للتحقيق، سواء دخلت على الماضي أم المضارع، ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣]، ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤]، ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨].

فهنا «قد» للتحقيق، واللام موطئة للقسم، كلُّ هذا مؤكِّد على أنَّ علم الله متحقِّق، وأنَّه لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء من أمور خلقه.

والمستقدمون: الأمم المتقدِّمة قبل محمَّد ﷺ، **والمستأخرون:** الأمم المتأخِّرة بعد محمَّد ﷺ إلى يوم القيامة.

أو المستقدمون: الأموات، والمستأخرون: الأحياء[1]، أيًّا كان

(١) المستقدمون: هم الذين تقدَّموا إلى الموت قبل المخاطبين. والمستأخرون: هم الذين لم يموتوا بعد، سواءٌ أكانوا في الحياة الدنيا أم لم يأتوا إليها بمقتضى تقدير الله وقضائه السابق =

QaradawiBooks.com

الماضون، والحاضرون، والمستقبلون، كلهم يعلم الله أمرهم، ولا تخفى عليه منهم خافية، ولا يغيب عنه سرٌّ ولا علانية، كما قال سيِّدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤].

علم الله تعالى شامل للمستقدمين وللمستأخرين، للماضي وللحاضر وللمستقبل، لما كان ولما هو كائن ولما سيكون، هو العلم المحيط: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، هذا علم الله.

أمَّا علم البشر فهو علم محدود بحدود المكان. فقد تعلم أمورًا حولك، ولا تعلم أشياء في مكان آخر؛ لأنَّ علمك محدود بحدود المكان، ومحدود بحدود الزمان، فلا تعرف الماضي إلَّا عن طريق الخبر والنقل، ولا تعرف المستقبل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، وأنت في قطر هنا تُرى هل ستموت فيها، أو ستموت خارجها؟ إذا كنت في بلد آخر قد تموت في بلدك في الإجازة، أو تموت وأنت مسافر، لا تدري، كما يقول الشاعر:

مشيناها خُطًا كُتِبَتْ علينا ومن كُتِبَتْ عليه خُطًا مشاها
ومن كانت مَنِيَّتُه بأرضٍ فليس يموتُ في أرضٍ سواها[1]

= إلى آخر حياة الناس في الأرض. اسْتَقْدم: بمعنى تقدم، واسْتَأخر: بمعنى تأخَّر. السين والتاء فيهما لتوكيد تحقُّق الوصف بالتقدُّم والتأخُّر، والفعل فيهما فيه معنى المطاوعة الجبريَّة، أي: قدَّمهم الخالق البارئ فاستقدموا، وأخَّرهم الخالق البارئ فاستأخروا.

(١) ذكرهما من غير نسبة الإبشيهي في المستطرف في كل فن مستظرف صـ ٤٩١، نشر عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ.

QaradawiBooks.com

ولكن لا نعلم أين نموت، ولا متى نموت؟ الإنسان علمه محدود أمام علم الله تبارك وتعالى، فهو العلم الواسع: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، فهو ﷻ العليم بكلِّ شيء، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

قدرة الله سبحانه على حشر المتقدِّمين والمتأخِّرين ومحاسبتهم:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

هؤلاء الَّذين يحييهم الله ويميتهم، كما في الآية قبلها ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾، خطاب للنبيِّ ﷺ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾، فهؤلاء لا تنتهي حياتهم بالموت، إنَّ الموت رحلة إلى دارٍ أخرى، كما قال عمر بن عبد العزيز: إنَّكم خلقتم للأبد، ولكن تنقلون من دارٍ إلى دار، حتَّى يستقرَّ بكم القرار[1].

وقال أبو العلاء في داليته الشهيرة[2]:

خُلِقَ النَّاسُ للبقاءِ فضلَّتْ أُمَّةٌ يحسبونهم للنَّفَادِ
إنَّما ينتقلون من دارِ أعما لٍ إلى دار شَقْوَةٍ أو رَشَادِ

الناس خلقوا للبقاء وللخلود، فضلَّت أُمَّة من النَّاس أو أمم من النَّاس يحسبون أنَّهم خلقوا لفترة محدودة، ثمَّ ينفدون ويفنون وينتهون بالموت، فالموت في نظرهم مُنْهٍ لحياتهم كلِّها، وهم إنَّما ينقلون بالموت من دار أعمال إلى دار شقاء أو رشاد، ينتقلون بالموت من دار العمل إلى دار الحساب، فيها الشقوة أو السعادة، فيها الثواب أو العقاب، فيها الجنَّة أو النار.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣٤)، في خطبة طويلة عن عمر بن عبد العزيز.
(٢) انظر: سقط الزند صـ ٨، نشر دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.

QaradawiBooks.com

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾، الله ﷻ بعد الموت يبعث الموتى، وبعد البعث يكون الحشر، بعد أن يُبعث النَّاس من قبورهم: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، يحشرهم الله في المحشر، مكان التجمُّع، هذا التجمُّع العظيم، الأمم منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة، كم من الملايين؟ كم من البلايين؟ كم من التريليونات من البشر؟ الله أعلم.

كل هؤلاء سيحشرون في ساحة العرض، يعرضون على الله ﷻ، فمنهم من يحشر على وجهه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ومنهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

يحشر النَّاس يوم القيامة حفاةً عُراةً غُرْلًا، كما ولدتهم أمهاتهم، حفاة بلا نعال، عراة بلا ثياب، غُرْلًا غير مختونين، عاد الإنسان كما خلق أول مرة: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

قال النبيُّ ﷺ: «**يحشر النَّاس يومَ القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلًا**». قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، النساء والرجال جميعًا، ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال ﷺ: «**يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض**، ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾»[1] [عبس: ٣٧].

انظر إلى الشابِّ الَّذي كان يجلس في الطرقات، يغازل هذه، ويُكلِّم هذه، وينظر إلى هذه، أمامه نساء عاريات، تجده يوم القيامة في حالة ذهولٍ من هول الموقف، والترقُّب إلى المصير المحتوم، فهي نار أو

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٩)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

جنَّة، وهي جنَّة الأبد أو نار الأبد، لا يفكر أحد في شهوة أو في شيء، الأمر أهمُّ وأشدُّ من أن يُهمَّهم ذلك: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

دلالة ختم الآية بالاسمين العظيمين: ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾، يوم القيامة للحساب والجزاء والثواب والعقاب؛ لأنَّه إذا أحاط بهم علمًا لم تصعب عليه إعادتهم وحشرهم.

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، ومن حكمته: أن يحشرهم وأن يُجازيَهم، وإلَّا لو انتهى الأمر بالموت ولم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء لكانت المسألة فوضى، ليس فيها حكمة، يقتل القاتل، ويظلم الظالم، وينهب الناهب، ويفعل الطغاة ما يفعلون بالشعوب، يدوسون كرامات النَّاس، ويهتكون حرمات الخَلْق، ويسفكون دماء البشر بالألوف أو الملايين، ثمَّ يموتون وانتهى الأمر، كثير من هؤلاء لم يُعاقَبوا في الدنيا؛ لأنَّ القانون لم يطلهم، وأحيانًا هم يكونون حماة القوانين، وواضعي القوانين، هم الحكَّام، «حاميها حراميها» إذن كيف يُحاكم، وكيف يعاقب؟ لن يعاقبه أحد، ثمَّ تنتهي الدنيا. إذن هذا يكون باطلًا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

مستحيل هذا في حكمة الله تعالى، وفي عدله، أن يساوي بين البرِّ والفاجر، وأن يساوي بين المؤمن والكافر، وأن يساوي بين العادل والظالم، وبين المحسن والمسيء، هذا يتنافى مع العدل الإلٰهي، ومع الحكمة الإلٰهيَّة، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

QaradawiBooks.com

ومن حكمته: أنَّه جعل دارًا للجزاء والحساب، يُوفَّى فيها كلُّ امرئٍ ما عمل، وتُجزى كلُّ نفس ما كسبت، لا يُظلم أحدٌ شيئًا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، كلُّ واحدٍ سيرى عمله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]، مكشوفة أمامهم، ويجازوا على هذه الأعمال: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١]. وهذا مبنيٌّ على حكمة الله، وعلى علم الله، إنَّه يعلم مَن أحسن ومَن أساء، يعلم الخيِّر من الشرير، يعلم الطيِّب من الخبيث، ويجزي كلًّا منهم بما عمل، لا يظلم أحد شيئًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الدرس الثالث

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۞ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۞ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۞ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۞ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٤٤].

الخلق المنظور والخلق المستور:

يريد الله سبحانه أن يعرفنا بقصَّة الإنسانيَّة منذ بدء هذه الخليقة البشريَّة المكلَّفة، فقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾، يذكر لنا قصَّة هذين الخَلْقين من المُكَلَّفين: الخلق المنظور، والخلق المستور.

QaradawiBooks.com

الخلق المنظور: هم البشـــر بنو آدم. والخلق المستور: هم الجنُّ أو الجانُّ.

كلمة «جَنَّ» يعني استتر: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] أي: استتر في ظلمة الليل، فالجنُّ هم الخلق المستورون: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعـراف: ٢٧]، خلـقٌ مغيَّبون عنَّا، الله ﷻ خلق الإنســان، وخلق الجانَّ.

الإنسان المذكور في هذه القصَّة هو آدم عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾

لم يذكر هنا اسم آدم في هذه القصَّة، ولكنَّ القصَّة كلَّها معروفة أنَّها لآدم، وقد ذُكِرَتْ هذه القصَّة من قبل في ســورة الأعراف المكيَّة، ومن بعد في سورة البقرة المدنيَّة، وذكرت باسم آدم علانيةً وصراحة، وهنا لم يذكر اسم آدم، ومن المعلوم أنَّ الإنسان الأول هو آدم عليه السلام، هو الإنسان، وهو البشر.

لا فرق بين الإنسان والبشر:

بعض إخواننا الَّذين تحدثوا في هذه القضايا قالوا: الإنســان شــيء والبشر شــيء[1]. ولكنَّ القرآن لم يفرِّق بين الإنسان والبشر في الآيات التالية يقــول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، وهنا يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]، فالإنسان هو البشر.

(١) هو الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه: أبي آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة، نشر مكتبة الشباب.

QaradawiBooks.com

الإنسان مخلوقٌ من الأرض:

﴿مِّن صَلْصَٰلٍ﴾: طين يابس، يسمع له صلصلة إذا نقر، ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾، طين أسود، ﴿مَّسْنُونٍ﴾: متغيِّر، أي: تغيرت رائحته بعد زمن فتخمر، فالمادة الَّتي خلق منها الإنسان من الأرض، فالإنسان خلق من الأرض، ويعود إلى الأرض ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

فالإنسان مخلوق من جنس الأرض، من ترابها ومعادنها وأملاحها، لذلك يقولون: إذا تحلَّل جسم الإنسان في القبر، تحوَّل إلى حفنة من تراب، خُلِقنا من التراب، ونعود إلى التراب.

دفع توهُّم التعارض بين الآيات الَّتي تحدَّثت عن خلق آدم:

القرآن الكريم أحيانًا يقول: إنَّ آدم خُلِقَ من تراب كما في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وأحيانًا يقول: إنَّ آدم خُلِقَ من طين، كما في سورة صَ: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [صَ: ٧١].

وهنا قال: ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، فهل هناك تعارُض؟

ليس هناك تعارض، فالتراب إذا نزل عليه الماء أصبح طينًا، وإذا تغيَّر وأنتن ريحُه أصبح حمأً مسنونًا، وإذا يبس هذا الطين أصبح صلصالًا كالفخار، هذه الأحوال كلُّها مرَّت على خلق الإنسان الأول «آدم»، ولا مانع من ذلك، ولكنْ كلُّ الَّذي يُهِمُّنا أنَّه مخلوق من جنس هذه الأرض.

QaradawiBooks.com

الإنسان مخلوقٌ ضعيف:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾، هذا الإنسان مخلوق، وليس إلٰهًا كما يريد بعض الفلاسفة الماديِّين، يؤلِّهون الإنسان، وبعضهم يقول: «الإنسان يقوم وحده» في غير حاجة إلى إلٰه. ورد على هذا الرجل الملحد أحد العلماء الغربيِّين (كريسي موريسون) في كتاب سمَّاه «الإنسان لا يقوم وحده»، وترجم هذا الكتاب إلى العربيَّة، تحت عنوان: «العلم يدعو إلى الإيمان».

هذا يدلُّنا على أنَّ هذا الإنسان مخلوق، خلقه خالق، وأنشأه منشئ من العدم، فهو لم يخلق نفسه، والله تعالى يقول: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

قانون العِلِّيَّة:

هل الإنسان خُلِقَ من غير شيء؟ مستحيل هذا؛ لأنَّ هناك قانونًا فطريًّا وعقليًّا يُجمع عليه كل الفلاسفة والمفكرين، اسمه قانون العلِّيَّة أو قانون السببيَّة: أنَّ كلَّ معلول لا بدَّ له من علَّة، وكلَّ مسبَّب لا بدَّ له من سبب، وكلَّ متحرِّك لا بدَّ له من محرِّك. كما عبَّر عن ذلك الأعرابي حينما سئل عن الله، فقال ببساطته وبلغته الفصيحة: البعرة تدلُّ على البعير، وخط السير يدلُّ على المسير، فكيف بسماءٍ ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدلُّ ذلك على العليِّ الكبير؟!

هذا هو قانون العِلِّيَّة، ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ [الطور: ٣٥]؛ لا يمكن أن يُخْلَقوا من غير شيء، لا بدَّ من خالق.

QaradawiBooks.com

﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]؛ هل هم الَّذين خلقوا أنفسهم؟ لا يستطيع أحد أن يقول ذلك؛ لأنَّ العدم لا يخلق الوجود، والمخلوق كان معدومًا، كيف يخلق نفسه وهو عدم؟

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٦]؛ السماوات والأرض موجودة قبل أن يُخْلَق الإنسان، فكيف يخلقها؟ حتَّى الَّذين ادَّعَوا الربوبيَّة ـ مثل النمروذ وفرعون ـ لم يدَّعوا أنَّهم خلقوا السماوات والأرض، فالإنسان مخلوقٌ بعد خلق السماوات والأرض، ولذلك تؤكد هذه الآية هذه الحقيقة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الله هو خالق الإنسان.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ متغيِّر منتنِ الرائحة، هذا المخلوق العظيم الَّذي كرَّمه الله، وسخَّر له ما في السماوات والأرض، مخلوق من هذه المادة الضعيفة الهيِّنة.

خلق الجانِّ قبل الإنسان من نار السموم:

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾

الجانُّ: أبو شياطين الجنِّ، وإبليس من ذريَّته. والجنُّ: خَلْقٌ مستورٌ عن أعين البشر، ومنهم المؤمنون الصالحون، ومنهم الشياطين الكافرون، وهم جنس مكلَّف مثل الإنس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، هؤلاء خُلِقوا من نار السَّمُوم، الَّتي فيها نار حارَّة، وتحمل السَّمُوم: الهواء الحارُّ القاتل، الَّذي تخترق سمومُه المسامَّ. ينفذ إلى سموم الجلد، ومنه: السمُّ الَّذي يخترق مسام الإنسان، ويؤدي إلى قتله. خُلِقَ هؤلاء الجانُّ من نار السموم، أو من مارجٍ من نار، ويقول سبحانه عن الجانِّ: ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: الجانُّ خلقوا قبل خلق آدم، الله خلق

QaradawiBooks.com

الجنَّ، وكان لهم في الأرض ما لهم، ثمَّ خلق الإنسان بعد ما شاء من ألوف السنين، أو من ملايين السنين، الله أعلم.

تحديد عمر الأرض:

هذه الأزمنة الضاربة في أغوار الزمن لا نعلم عنها شيئًا، ولذلك لا نخوض في تفاصيلها، البيولوجيُّون والجيولوجيُّون يتحدَّثون عن عمر الأرض من ملايين السنين، وعن عمر الكون بالبلايين، ونحن لا نُصدِّق ولا نكذب، وليس عندنا ما ينافي هذا في القرآن، عندهم في التوراة: أنَّ الدُّنيا عمرها كلها سبعة آلاف سنة!

قال الطبري: «زعم اليهود أنَّ جميع ما ثبت عندهم على ما في التوراة، ممَّا هو فيها من لدن خلق الله آدم إلى وقت الهجرة، وذلك في التوراة الَّتي هي في أيديهم اليوم أربعة آلاف سنة وستمائة سنة واثنتان وأربعون سنة... وأمَّا اليونانيَّة من النصارى فإنَّها تزعم أنَّ الَّذي ادَّعته اليهود من ذلك باطل، وأنَّ الصحيح من القول في قدر مدة أيام الدُّنيا من لدن خلق الله آدم إلى وقت هجرة نبيِّنا محمَّد ﷺ على سياق ما عندهم في التوراة الَّتي هي في أيديهم خمسة آلاف سنة وتسعمائة سنة واثنتان وتسعون سنة وأشهر»[1].

وليس عندنا شيء من هذا التخريف إطلاقًا، لا يستطيع أحد أن يقول عمر الدُّنيا سبعة آلاف، أو سبعة ملايين، أو سبعة بلايين، ليس عندنا دليل من القرآن ولا السُّنَّة، وهذا من روائع هذا الدِّين، ومن إعجازه: أنَّه لا يوجد فيه شيء ينافي العلم، لا يوجد فيه أمر قطعي حقيقي ينافي حقيقة علميَّة قاطعة.

(١) تاريخ الطبري (١٨/١)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

QaradawiBooks.com

لقد ذكر لنا القرآن أنَّ عمر فرد واحد من البشـــر قد بلغ ألف سنة أو تزيد، وهو عمر نوح عليه السلام، فماذا تكون أعمار الأمم والقرون في القديم والحديث؟!

غير مرخصة للطباعة

الملائكة الكرام من العالم غير المنظور:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

«إذ» قال العلماء: معناها اذكـــر، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾، أي: اذكر يا محمد، حينما قال ربك للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾، وفي سورة (صَ): ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ [صَ: ٧١].

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾: خطاب للنبيِّ ﷺ بهذا اللفظ: ﴿رَبُّكَ ﴾ الَّذي يُرَبِّيك ويرعاك ويُرَقِّيك في مدارج الكمال ولا يتخلَّى عنك.

الملائكة: مخلوقـــات نورانيَّة معصومة مطهَّرة، وهـــم أيضًا نوع من الخلق المســـتور من العالم غير المنظور، هناك ـ كما قلنا ـ عالم منظور نشهده بأعيننا، وهناك عالم مســـتور غير منظور لا نراه بأعيننا، كما قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقـــة: ٣٨، ٣٩]، وما لا نبصره أضعاف أضعاف ما نبصره، حتَّى قال علمـــاء الكون وعلماء الطبيعة: إنَّ الكون المادي الَّذي نعيش فيه، لا نبصر منه إلَّا ثلاثة في المائة، وسبعة وتســـعون في المائة من هذا الكون المادي لا نعرفها. يسمُّونها الأعماق السوداء، لا نعرف عنها شـــيئًا، فنحن نرى القليل، فما بالك بالكون غير المادي؟ هذا في الكون المادي، إنَّما الكون غير المادي، مثل الجن، مثل الملائكة الَّذيـــن خلقوا من نور، كمـــا في الحديث الَّذي روته الســـيدة عائشة رضي الله عنها، في «صحيح مسلم»: «**خُلِقَت الملائكةُ من نور، وخُلِقَ الجانُّ**

نسخة تجريبية

من مارجٍ من نار، وخُلِقَ آدم ممَّا وُصِفَ لكم»[1]. أي: من طين، ومن صلصال من حمإ مسنون، إلى غير ذلك ممَّا جاء في القرآن الكريم، هذا الكون غير المادي نحن لا نعلم عنه إلَّا أقل أقل القليل.

فالملائكة مخلوقات نورانيَّة روحانيَّة، الله ﷻ فطرها على الطاعة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، فطروا على الطاعة، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

تسوية الإنسان ونفخ الرُّوح فيه:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾

هؤلاء الملائكة قال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾، هذا البشر المخلوق من الصلصال، من الحمإِ المسنون، أو من الطين المُنْتِن، أو الطين اليابس، من صلصال كالفخار، هذا المخلوق، إذا سوَّيته ونفختُ فيه من رُوحي.

التسوية تهيئته لما يعدُّ له، للوظيفة الَّتي يقوم بها بعد مرحلة الخلق، ومرحله التسوية، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨]، ثمَّ بعد الخلْق التسويةُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣]، فالتسوية فرع عن الخلق، وتكملة للخلق: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، فمن تمام الخلق: التسوية، ومن تمام التقدير: الهداية.

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٦)، وأحمد (٢٥١٩٤).

QaradawiBooks.com

جهل الإنسان بحقيقة الرُّوح:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾، ميَّز الله هـذا المخلوق الطيني، المخلـوق الترابي، المخلـوق الصلصالـي، المخلـوق الحَمَئِيَّ، هذا المخلوق من الأرض، الَّذي تميَّز به هذا المخلـوق: أنَّ الله نفخ فيه من رُوحه ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾.

كيف كان هذا النفخ من الرُّوح؟ بعض النَّاس يتسـاءل: كيف يتَّصل الفاني بالباقي؟ كيف يتَّصل المحدث بالأزلـي؟ كيف يتَّصل المخلوق بالخالـق أو الخالـق بالمخلوق؟ كيـف يتَّصل هذا بـذاك؟ في الواقع لا نعرف كنهها، يجب أن نقف عند حدودنا، ومن سـعادة جَدِّك وقوفُك عنـد حـدِّك. ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسـراء: ٨٥]، إذا كنَّا لا نعرف بعض حقائق هذه الحياة، لا نعرف ما معنى الحياة الحقيقي، إنَّمـا نعرف آثار الحياة، ومن آثارها: النموُّ، التنفُّس، التكاثـر، ولكن ما هي الحياة نفسـها؟ لا نعرفها، كما لا نعرف حقيقة الكهرباء، ولا حقيقة المغناطيس، ولكن نعرف آثارها.

إذا كنَّا لا نعرف كُنْه الحقائق الماديَّة، فكيـف نتطاول إلى ما يتعلَّق بالربوبيَّة، يجـب أن نوفِّر طاقتنا العقليَّـة، بدلًا مـن أن نُفَكِّر في هذه المسائل، الَّتي تسـتنفد منَّا جهودًا ولا نحصل على شيء، ولا نصل إلى شـيء إلَّا التعب والمعاناة، ثمَّ نعـود بخُفَّيْ حُنَيْن، أو بغيـر خُفَّيْن، أو بلا شيء نهائيًّا.

الأَوْلى أن نوفِّر هذا، نعمل في الكون، نتأمَّل في الكون، نكتشـف قوانين الكون، نوجِّه قوى الكون، هذا ما وجَّهنا الله تعالى إليه: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعـراف: ١٨٥].

QaradawiBooks.com

كلُّ ما خلق الله مجالٌ للنظر والتفكُّر والتأمُّل، فنحن نقول: الله نفخ في هذا الإنسان من رُوحه، كما شاء، وكيف شاء.

سبب أمر الملائكة بالسجود لآدم:

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[١]

لم يأمرهم بالسجود لهذا المخلوق لمجرَّد تكوينه الهيكلي والمادي من الطين أو الصلصال، إنَّما أمرهم أن يسجدوا له حينما نفخ فيه الرُّوح، هذا هو الَّذي كرَّم الإنسان، هذا هو الَّذي ميَّز الإنسان، هذا هو الَّذي جعل هذا المخلوق جديرًا بأن تسجد له الملائكة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾، فخرُّوا له ساجدين، كما قال الله تعالى عن إخوة يوسف ووالديه: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، أي: لسيِّدنا يوسف.

كيف يسجد مخلوق لمخلوق؟ ربُّنا نهانا أن نسجد لأيِّ بشر، ولأيِّ مخلوق، ولكنَّ عالم السماوات وعالم الملائكة عالمٌ غير عالمنا، ثمَّ إنَّ السجود إذا كان بأمر الله انتهى الأمر، لم يعد فيه شرك ولا شائبة شرك، كما نهانا الله أن نُقْسِم بأحدٍ سواه، «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[٢].

ولكنَّ الله أقسم بالفجر: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ ـ ٥].

وبالضُّحى وما بعده: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٣].

---

(١) قعوا: أي: انحنوا مُسْرعين، وعُبِّر عن ذلك بالوقوع للدلالة على سُرعة الاستجابة بالانحناء.

(٢) رواه أحمد (٥٥٩٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وقال: حديث حسن. والحاكم (٢٩٧/٤)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الأيمان والنذور، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٥٢)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

وبالعصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢].

وبالليل والنهار وما بعدهما: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۞ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١ ـ ٤].

وبالشمس والقمر وما بعدهما: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۞ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۞ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۞ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۞ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٩].

وبالتين والزيتون وما بعدهما: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۞ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١ ـ ٤]، وأقسم بمخلوقات كثيرة، ومن حقِّه تعالى إذا أقسم أن يقسم بما شاء، ولكن نهانا أن نُقْسم بغيره سبحانه، ونهانا أن نسجد لغيره سبحانه، ولكن إذا أمر بعض خلقه أن يسجدوا لبعض، يجب أن يسجدوا.

سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس:

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾

القرآن يؤكِّد أنَّ الملائكة لم يتخلَّف منهم أحد، قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ثمَّ أكَّد هذا. كلمة: ﴿كُلُّهُمْ﴾، «كل» للتوكيد، و﴿أَجْمَعُونَ﴾، توكيد بعد توكيد.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، لم يتردَّدوا ولم يتلعثموا ولم يتلكَّؤوا، خرُّوا سُجَّدًا بعد أمر الله ﷻ، اسجدوا فسجدوا كلُّهم أجمعون.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، امتنع إبليس أن يصير مع الساجدين، في استجابتهم وفعلهم هذا إبليس هو الَّذي تمرَّد على ربِّه، ورفض السجود له.

QaradawiBooks.com

هل كان إبليس من الملائكة؟

بعض العلماء قال هذا؛ لأنَّه أمر الملائكة بالسجود وهو معهم، فلا بدَّ أن يكون من الملائكة، ولكن القرآن قال في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، فليس ـ إذن ـ من الملائكة، خصوصًا بعد ما جاء في الصحيح: «**خُلِقَت الملائكةُ من نور، وخُلِقَ الجانُّ من مارج من نار**»[(١)]، فلا يمكن أن يكون من الملائكة، ثمَّ إنَّ الملائكة مفطورون على الطاعة: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، إنَّه تمرَّد على الله فأبى واستكبر، ورفض وجادل، تحدَّى اللهَ خالقَه! أبى أن يكون مع الساجدين، امتنع ورفض[(٢)].

سبب امتناع إبليس عن السجود:

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

خاطب الله سبحانه إبليس باسمه المعروف به بين الملائكة والجنِّ، وترفَّق بمساءلته: يا إبليس، ما الَّذي يمنعك أن تكون مع هؤلاء الساجدين؟ وفي سورة الأعراف: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، فإبليس كان عنده أمر، إمَّا أمرٌ خاصٌّ به، أو أمرٌ مع الملائكة؛ لأنَّه كان يعيش مع الملائكة، فأصبح كأنَّه واحد منهم. النَّاس تقول: من عاشر القوم أربعين يومًا صار منهم. وهنا: عاش إبليس معهم آلاف السنين؛

(١) سبق تخريجه صـ ٨٥.

(٢) إبليس كان مع الملائكة وإن لم يكن منهم، وقد وجَّه الله له الأمر بالسجود لآدم معهم إما أمرًا خاصًّا به، وإما شمله أمر الملائكة.

فكأنَّه أصبح واحدًا منهم. فما يصدر إليهم من أمر يكون هو أيضًا معهم، المهم أنَّه عرف أنَّه مأمور، وهو قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، هنا لم يقل هذا، ولكن قال: ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٖ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾[1].

انظر كلمة: ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾، اللام هنا يسمُّونها لام الجحود، الَّتي تأتي بعد «ما كان»، أو «لم أكن»، أو «لم يكن»، أو كما يقول النحاة: بعد الكون المنفي، كقوله تعالى: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ [النساء: ١٣٧]، أي: ما كان من شأنه، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ومعنى الآية: ما كان من شأني ولا يليق بي أن أسجد ﴿لِبَشَرٖ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾: إبليس يترفَّع عن السجود لآدم، ويرى أنَّه أفضل من آدم، لأنَّه طيني، وهو ناري، والنَّار تأكل الطين، فكيف يسجد الأفضل للمفضول؟

وفي سورة أخرى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، المهمُّ أنَّه يعترف بأنَّ الله هو خالقه، وخالق آدم، ومع هذا يتحدَّى الألوهيَّة الخالقة، يرفض أمر الله ﷻ، وهذه هي المشكلة الإبليسيَّة: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢].

بعض العلماء قيل له: رأيتَ إبليس؟ قال: ما رأيتُ إبليس، ولكن إذا رأيتُ من يقول: أنا، فهو أخو إبليس أو ابن إبليس. «أنا» النظر إلى النفس بعين الاستعلاء والاستكبار، وإلى الغير بعين الازدراء والاحتقار، هذه هي الإبليسيَّة.

---

(١) هذا الردُّ من إبليس يعبِّر عن استكباره وترفُّعه واستنكافه عن أن يسجد لمن يعده دونه في الخلق، ويعبر عن شكِّه في حكمة الله ﷻ، واعتراضه عليه، ولم يذكر إبليس لنفسه عذرًا حقيقيًّا ا، بل أجاب بما يكشف عن كبره ووقاحته في مخاطبة ربِّه.

QaradawiBooks.com

مقارنة بين الطين والنَّار:

لقد زعم إبليس أنَّه خيـرٌ من آدم، فقـال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعـراف: ١٢]، ومن قال: إنَّ النَّـار أفضل من الطين؟ ربَّما كان الطين أفضل من النَّار، الطين يُحيي والنار تُميت، الطين يُعَمِّر والنار تدمِّر، صحيح أنَّ كلًّا منهما له فائدته، ولا يخلق الله شـيئًا إلَّا وله فائدة، عَلِمَها من علمها، وجهلها من جهلها.

حسد إبليس وكبره:

ولكن هذا هو جهل إبليس، وهذا هو الغرور الَّذي أدَّى بإبليس إلى الحسـد والكبر، هما اللذان أفضيـا بإبليس إلى هذا التمـرُّد على الله، والعصيان لأمر الله، حسد آدم على ما فضَّله الله به، واستكبر كما قال الله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وهاتان الخصلتان ـ الحسد والكبر ـ من خصال السوء، وهو ما يُسَمِّيه علماء السلوك: المعاصي الباطنة. ويُسَـمِّيها الإمام الغزالي: المهلكات، وعليها قام الربع الثالث من الإحياء.

شـرُّ المعاصي الَّتي يقـع فيها الخلق، هـي المعاصـي الباطنة، وأقلُّ المعاصي هي المعاصي الظاهرة، فالمعاصي الظاهرة ليست أخطر المعاصي.

خطر معاصي القلوب:

أخطر المعاصي: معاصي القلوب: الحسـد، الكبـر، الغرور، الرياء، حبُّ المال، حبُّ الجاه، الحقد، الغضـب، الكراهية، وغيرها، هذه هي معاصـي القلوب الخطيـرة، ولذلك كانـت معصية آدم مـن المعاصي الظاهرة، ومعصية إبليس من المعاصي الباطنة، معصية آدم كانت الأكل

QaradawiBooks.com

من الشجرة، وهو أمر حِسِّي، دفعت إليه الشهوة والغريزة، وغَرَّر به الشيطان، ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

أمَّا معصية إبليس، فهي معصية باطنيَّة متحدِّية، وقف إبليس ندًّا يعارض ربَّه ويقول: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

وكانت أول معصية وقعت في هذا العالم هي معصية إبليس، وبعد ذلك معصية آدم.

أول معصية هي معصية إبليس لعنه الله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، صٓ: ٧٦].

خروج إبليس من الجنَّة وطرده من رحمة الله:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾، فارقها وابتعد عنها، أي: من السماوات، أو من الجنَّة، ليس لك مكان في الملأ الأعلى الَّذي فيه الملائكة المطهَّرون، الَّذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، اخرجْ يا إبليس؛ لأنَّك تلوُّث هذا المكان، ابتعد عن هذا المكان.

﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ «رجيم»: على وزن فعيل، بمعنى مفعول، مرجوم أي: ملعون ومطرود من الرحمة والخير والكرامة، ومن منازل الملأ الأعلى. وهذا مقام لا يقوم فيه الملاعين ولا المراجيم ولا المطاريد.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، تلبسك وتركبك اللعنة. واللعنة: هي السبُّ والطرد. أنت مطرود من رحمة الله إلى يوم الدِّين، لا بقاء لك في عالم الملكوت، عالم السماوات، عالم الملائكة، عالم المطهَّرين،

QaradawiBooks.com

عالـــم المقرَّبين، ليس لـــك موضع في هذا المـــكان، ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۞ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، إلى يوم الحساب والجزاء.

مجازاة إبليس بعمله:

هل ظلم الله إبليس أم جازاه بعمله؟ لا، لم يظلمه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، إنَّمـــا جازاه الله بعملـــه، هذا الَّذي وقـــف متحدِّيًا للألوهيَّة، كان لا بدَّ أن يطرد من رحمة الله ﷻ، وأن يعلن بهذه الحقيقة: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۞ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[1].

القرآن الكريم كتاب حوار:

ثم بدأ هذا الحوار بين إبليس وبين الله ﷻ، ولهذا دائمًا نقول: إنَّ القـــرآن الكريـــم كتاب حوار مـــن الطـــراز الأول: حوار بين الرســـل وأقوامهـــم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

انظر حوار سيِّدنا موسى مع فرعون، في سورة طه: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۞ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ

(١) وفيه إشعار بتأخير عقابه الشديد غير اللعن إلى هذا اليوم، وأنَّ اللعنة مع شدَّتها ليست وحدها جزاء فعله، وأنَّ الجزاء الأوفى يناله يوم القيامة، ومنه الخلود في جهنم. وليس معنى ذلك: أنَّ اللعنة تنقطع عنه إذا جاء يوم القيامة، بل المراد أنَّه عند ذلك اليوم يرى من الهول ما تصير معه اللعنة كأنَّها لا شـــيء، وبهذا نعلم أنَّ اللعنة باقية تتبعه في جهنم. فيلعنه كل من فيها، ويلعنه المؤمنون. كما قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال ﷻ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقال ﷻ: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۞ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

QaradawiBooks.com

وَتَوَلَّىٰ ۞ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٧ ـ ٥٠]، الآيات.

وفي سورة الشعراء: ﴿ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۞ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦ ـ ١٨] الآيات، حوار طويل.

الأنبياء يحاورون الله سبحانه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِى مِنۡ أَهۡلِى وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۞ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

والله ﷻ يحاور الملائكة: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وأخيرًا نرى حوار الله لشرِّ خلقه إبليس، فهذا يدلُّنا على أنَّ الحوار في هذا الدِّينِ ليس أمرًا غريبًا، بل هو فريضة في هذا الدين، وإنَّا مأمورون أن نحاور مخالفينا: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، الموعظة الحسنة مع الموافقين، والجدال بالَّتي هي أحسن مع المخالفين، فهذا ما يعلِّمنا إياه هذا القرآن العظيم. فتح الله لإبليس باب الحوار، لم يغلق عليه الباب، طلب من الله أشياء فأجابها له.

طلب إبليس الإمهال إلى يوم البعث:

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِىٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾

أي طلب من ربِّه أن يؤخِّره ويمهله إلى يوم يبعثون، يوم يُبْعث آدم وذريَّته للحساب والجزاء، أراد بذلك أن يجد فسحةً من الوقت تُمكِّنه من

QaradawiBooks.com

إفساد بني آدم، فيثأر من آدم وذريَّته، وأراد أيضًا أن ينجو من الموت الَّذي يعمُّ كلَّ حيٍّ عند النفخة الأولى.

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ أي: إلى وقت النفخة الأولى يوم موت الخلائق، ففي الوقت المحدَّد سينتهي أجله.

ابتلاء الإنسان بتزيين الشيطان وإغوائه:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

هذا دلالة على أنَّ هذا الإنسان الَّذي خلقه الله بيديه، ونفخ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكته، وكرَّمه أفضل تكريم، وخلقه في أحسن تقويم، هذا الإنسان حياته قائمة على الابتلاء، نحن ذكرنا أنَّ هذا الإنسان مخلوق، خلقه ربٌّ خالقٌ عظيم، وليس كما يدَّعي المدَّعون، أنَّه أنشأته الطبيعة، أو مصادفات عمياء، أو غير ذلك، لا، هو مخلوقٌ خلقًا مستقلًّا، يعني لم يتطوَّر عن مخلوق غيره، كما قالوا: إنَّه تطور من كذا إلى كذا، إلى قرد، إلى إنسان. لا، هو مخلوق: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨] فهو مخلوق قصدًا واستقلالًا.

وهو أيضًا مخلوق على أساس الابتلاء: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان: ٢]، ومن ابتلاء الله للإنسان: ابتلاؤه بالشيطان، بهذا العدو الداهية الماكر المتربِّص للإنسان، لا يغفل عنه أبدًا، هذا الشيطان إبليس، حينما أخرجه الله من السماوات، أو أخرجه من الجنَّة، أو أخرجه من مستقرِّ رحمته، وخاطبه بقوله: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾: لعنة الله، ولعنة النَّاس، لا يوجد أحد يُلعن كما يلعن إبليس، فعليه لعنةُ الله إلى يوم الدين، هنا

QaradawiBooks.com

قال إبليس: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ إبليس يعترف بربوبيـــة الله ﷻ، ويعترف بأنَّ الله خالقه، ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢، صَ: ٧٦]، فهو معترف بأنَّ الله هو خالقه، وخالـــق آدم، وخالق الكـــون، وأنَّه ربُّه، لذلـــك يقول: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

«الباء» هنا في ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾، هل هي للقسم؟ يعني: بحقِّ ما أغويتني. كما قال في ســـورة صَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [صَ: ٨٢]، هل الباء للقسم؟ أي: أُقسم بإغوائك إياي لأزيِّنَنَّ لهم في الأرض.

أو الباء للسببية؟ أي: بسبب ما أغويتني. فالباء تأتي في اللغة العربيَّة للسببية، مثل: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ﴾ [المائدة: ١٣]، أي: فبسبب نقضهم.

وهنا الاحتمالان قائمان، البعض يقول: إنَّ الفعل لا يجوز الإقسام به، إلَّا إذا جـــاء بالصفة. مثـــل: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾، وهي صفة من صفـــات الله، أمَّا القسم بإغواء الله فلا. والباء للســـببية. أي: بسبب ما أغويتني: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

وضمير ﴿لَهُمۡ﴾ لذرية آدم، كما قال: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وكما قال أيضًا في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، ســـأقف علـــى الصراط المســـتقيم، حتَّى لا يسلك هذا الصراط أحد.

QaradawiBooks.com

إبليس قاطع طريق:

إبليس قاطع طريق، كما وصفه الله سبحانه: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، من كلِّ جهة سأقطع عليهم السبيل، ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: يُرَغِّبهم في الدُّنيا، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: يُشَكِّكهم في الآخرة، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: يُثَبِّطهم عن الحسنات، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾، يُرغِّبهم في السيئات. وقيل: لم يذكر جهة فوق؛ لأنَّها جهة الرحمة المنزَّلة من الله، ولا جهة تحت، الَّتي هي السجود لله، كما جاء في الحديث: «**أقرب ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجد**»[(١)]. ولكنَّه قال هنا: سأفعل كلَّ ما أستطيع من كلِّ جهة. فهو يبذل جهده، ويكيد كيده للإنسانيَّة، حتَّى يُضِلَّهم عن سبيل الله.

سئل الإمام الحسن البصري: قيل له: هل ينام الشيطان؟ قال: لو نام لاسترحنا[(٢)]. ولكنَّه لا ينام، لا يأخذ إجازة، لا يستريح، يعمل ليلَ نهارَ، وصيفَ شتاء، في كلِّ وقتٍ، مخلص لمهمَّته في إيذاء الإنسان، وإضلال الإنسان، وإغواء الإنسان.

التزيين والإغواء:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾، هذا عمل الشيطان، عمله مع الإنسان: التزيين والإغواء.

يُزَيِّن للإنسان السوء ويُجمِّله له ويُحبِّبه فيه حتَّى يراه حسنًا: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا ﴾ [فاطر: ٨].

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأحمد (٩٤٦١)، عن أبي هريرة.

(٢) إحياء علوم الدين (٣١/٣)، نشر دار المعرفة، بيروت.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يُزَيِّن له القبائح والمعاصي والشرك حتَّى الكفر والنفاق والرياء، كل المعاصي، معاصي الجوارح ومعاصي القلوب، يُزَيِّنها لهم الشيطان ويُحبِّبها إليهم، ويُحسِّنها لهم.

وبعض النَّاس ـ للأسف ـ يغرُّهم تزيين الشيطان كأهل سبأ الَّذين كانوا يعبدون الشمس كما قال الله على لسان الهدهد: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٤].

الشيطان يزيِّن الأعمال السيئة تزيينًا، ويُزَيِّن الدنيا: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

يُزَيِّن الباطل ويبرزه في صورة الحقِّ، يزين المنكر حتَّى يصبح معروفًا، ويزين المعصية حتَّى يغري النَّاس بها، ولا يشبعوا منها أبدًا، لأنَّ المعاصي كلَّما ازددتَ منها شربًا ازددتَ لها عطشًا، فهذا من عمل الشيطان، تزيين الشيطان، زيَّن لهم الشيطان أعمالهم.

الفرق بين الإغواء والإضلال:

فالشيطان يُزَيِّن للبشر في الأرض، ويُغْويهم كما قال: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾، بعض المُفَسِّرين يقول: أُغْويهم أي: أضلُّهم، ولكن في الحقيقة القرآن يقول: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ٢]، إذن الضلال شيء، والإغواء شيء، فالضلال يتعلَّق بفساد الفكر والاعتقاد، والإغواء يتعلَّق بفساد العمل والسلوك، ولذلك الضلال يُقابله الهدى، والغي أو الغواية يقابلها الرُّشْد: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فالغي أن يفسد سلوك الإنسان، أن يسوء خلقه، فكأنَّ التزيين يتعلَّق بالجانب الفكري، يزين للنَّاس أفكار السوء، ومفاهيم السوء، وبدع السوء، ونظريَّات السوء،

QaradawiBooks.com

الَّذين يتبعون ماركس، الَّذين يتبعون فرويد، الَّذين يتبعون دوركايم، فهؤلاء النَّاس الَّذين يُزَيِّنون الباطل لغيرهم، فيُسمُّون الماركسيِّين أو العلمانيِّين باسم فئة النخب المثقَّفة، أو صفوة المجتمع، هؤلاء من الَّذي صنع لهم ذلك وزيَّن لهم هذه الأفكار، فحسبوا الباطل حقًّا؟ فالضلال يتعلَّق في الغالب بالجانب الفكري، والإغواء يتعلَّق بالجانب العملي، فأفسد عليهم أفكارهم، وأفسد عليهم أعمالهم، هذا هو عمل الشيطان: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

طموح الشيطان وعلو همته في التزيين والإغواء:

انظر إلى طموح الشيطان وعلوِّ همَّته في التزيين والإغواء، لم يقل: أضلُّ مليونًا ولا مليونين ولا ثلاثة ملايين ولا عشرة ملايين، بل قال: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يشتغل مع البشر جميعًا، أبيضهم وأسودهم، عربهم وأعجمهم، شرقيهم وغربيهم، كبارهم وصغارهم، رجالهم ونسائهم، أغنيائهم وفقرائهم، حُكَّامهم ومحكوميهم، ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، كلمة «في الأرض» تعني كلَّ الأرض، في الأرض كلها، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

المستثنَوْن من تزيين الشيطان وإغوائه:

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾

يقول الإمام الرازي[2]: إنَّ إبليس لم يرضَ أن يكون كاذبًا فيدَّعي أنَّه يضلُّ النَّاس جميعًا، فاستثنى ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، هؤلاء

(١) أي: كلهم في كل زمان ومكان.

(٢) تفسير الرازي (١٦٨/١٦).

QaradawiBooks.com

لا أقدر عليهم. وهذا دليل على خساسة الكذب حتَّى عند إبليس نفسه، فإبليس نفسه لم يُرِدْ أن يكون كذابًا.

قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وفي قراءة من القراءات السبعة: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1] الَّذين أخلصوا دينهم لله، أو الَّذين أخلصهم الله لدينه وهداهم واصطفاهم، فهؤلاء لا أستطيع أن أغويهم. كلتا القراءتين لها معناها، وبينهما تكامل فكري.

أثر الإخلاص في العمل:

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الَّذين وصفوا بالإخلاص، والإخلاص تصفية العمل من كل شائبة فلا يكون العمل إلَّا ابتغاء رضوان الله ﷻ، لم يعمل العمل لأي غرض من الأغراض، كأن يرضي النَّاس، بل يعمل العمل لا ليراه النَّاس ولا ليحمدوه، ولا للشهرة ولا للمال ولا للجاه ولا للمنصب، لا تدخل الدُّنيا بكل أعراضها وزخارفها وبكل ما يحرص النَّاس عليه فيها، لا يدخل شيء من هذا في نيته وفي هدفه، حينما عمل، وهذا هو الإخلاص.

الإخلاص ـ كما قال الجُنَيْد ـ سرٌّ من الأسرار، لا يطَّلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيُميله[2].

---

(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بكسر اللام، أي: الذين يخلصون لك الإيمان والعمل، فأنت تحميهم من الغواية بسبب إخلاصهم لك. وقرأها باقي العشرة: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، بفتح اللام، أي: الذين تستخلصهم وتصطفيهم، فتعصمهم من الغَواية. انظر: معجم القراءات القرآنية للدكتور عبد اللطيف الخطيب (٥٥١/٤)، نشر دار سعد الدين، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

(٢) مدارج السالكين (٩٢/٢)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

الإخلاص سـرٌّ بين العبد وبين ربِّه، حتَّى قال بعض السلف: طوبى لمن صحَّت له خطوة لا يريد بها إلَّا وجه الله ﷻ[1].

وكلٌّ منَّا يسـأل نَفْسَـه: هل أريدُ وجه الله؟ لا بدَّ أن نُفَتِّش في أنفسـنا، ونقول: هل هذا العمل لوجه الله، أو فيه شائبة من شوائب الدنيا؟ هكذا يجب على الإنسـان أن يرصد نفسـه، ويراقب نفسـه، ماذا في نفسـه من الرغبة الحقيقيَّة في رضا الله؟ وما فيها من الرغبات الأخرى الَّتي تدخل عليه؟ وكثير من النَّاس لا يراقب نفسه وأعماله، ويظنُّ أنَّها لله، وهي ليست لله سبحانه.

إخلاص الدِّين لله ﷻ:

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، حينما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، أخلصوا دينهم لله، فالإخلاص أن تخلص دِينَكَ لله، أو يخلصكَ الله لدينه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، أو «إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ». هذا ما قاله إبليس، فبماذا ردَّ الله تعالى عليه؟

الطريق الموصِّل إلى الله:

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۞ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، هذا طريق واضـح، قال: «عليَّ» بمعنى إليَّ، أي: يُوصل إليَّ، طريق مستقيم مسدَّد لا خلل فيه ولا إخلال، هذا

(١) إحياء علوم الدين (٣٧٨/٤).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الإخلاص، إخلاص الدِّين لله من العبد، أو إخلاص الله العبد لدينه ـ على القراءتين: المخلَصين، والمخلِصين ـ هذا هو الطريق المستقيم الموصل إلى الله ﷻ، فليس هناك طريق موصل إلى الله أعظم من الإخلاص لله تبارك وتعالى، وإخلاص العبد لدينه.

سُنَّة اللهِ في حفظ عباده المخلصين من الشيطان:

وهناك رأي آخر في معنى الآية: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، هذا طريق متَّبع عندي، سُنَّة من سنني، من هذه السنن: أنِّي لا أمكِّن الشيطان من عبادي المخلِصين المخلَصين.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾: ما الصراط المستقيم؟ هو: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾: أطاعك وانقاد لك، ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

هناك قراءة قرأ بها بعض السلف، ومنهم يعقوب، وهو من القُرَّاء العشرة، أنَّه قرأ: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ[1] مُسْتَقِيمٌ﴾، لأنَّ الصراط عليٌّ رفيع، أي: رفيع المنزلة، ومستقيمٌ لا عِوَج فيه ولا أَمْتٌ. المهم: هذا الصراط وهذه السُّنَّة أو هذه الطريقة: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

ما المراد بالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾؟

هل الاستثناء هنا في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ استثناء متَّصل أم استثناء منقطع؟

البعض يقول: إنَّه استثناء منقطع، إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ

(١) بكسر اللام ورفع الياء وتنوينها، من العُلو، «عَلِيٌّ مُسْتَقِيْمٌ» أي: رفيع، وقرأ الباقون: ﴿عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ بفتح اللام والياء من غير تنوين. انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٣٠١/٢)، ومعجم القراءات القرآنية (٥٥٢/٤، ٥٥٣).

QaradawiBooks.com

قط، ليس لك سلطان على أحد من عبادي، لكن من اتبعك من الغاوين، ليس لك سلطان عليهم، إنَّما توسوس لهم فيتبعك بعض النَّاس، إنَّما ليس لك قدرة عليهم، كما سبق أن ذكرنا في تفسير سورة إبراهيم: حينما ذكرنا قول الشيطان يوم القيامة: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ليس للشيطان سلطان يؤثِّر به على العباد؛ لأنَّ الَّذي اتَّبع إبليس، اتبعه باختياره، ولم يقهره إبليس على شيء، دعاه ووسوس له ورغبه في السيئات، وثبَّطه عن الحسنات، فاستجاب له، فهُم الَّذين اتبعوك، هؤلاء الغاوون هم الَّذين اتَّبعوك، وأنت ليس لك عليهم سلطان، هذا إذا قلنا: إنَّ الاستثناء منقطع.

معنى الاستثناء المنقطع في اللغة العربيَّة:

إذا كان المستثنى من جنس المستثنى منه، نقول عنه: استثناء متَّصل، مثل: حضر القوم إلَّا إبراهيم، إبراهيم من القوم، إنَّما تقول: حضر القوم إلَّا حمارهم، حمارهم ليس من القوم، فنسمِّيه استثناءً منقطعًا، ولكن حمارهم لم يحضر، فالاستثناء المنقطع بمعنى الاستدراك. لكن إذا قلنا: إنَّه منقطع، نقول: إبليس ليس له سلطان على أحد.

وإذا قلنا: إنَّه متصل نقول: إنَّ له سلطانًا على هؤلاء الغاوين.

المراد بالإغواء أي: القدرة على إغوائهم، وإبعادهم عن صراط الحقِّ والهدى، ولعل هذا معنى يؤيِّده قول الله تعالى في سورة النحل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۞ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠]، فله سلطان ـ إذن ـ على من يتولونه.

النجاة من كيد الشيطان:

الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، فعباد الله المخلِصون أو المخلَصون، ليس للشيطان عليهم سبيل، نَجَوْا من كيده بذكر الله ﷻ، بالاستعاذة بالله من شرِّ الشيطان وهمْزه ونفْثه ونفْخه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٦].

آخر سورة في القرآن سورة النَّاس، كلُّها قائمة على الاستعاذة من هذا الوسواس الخناس.

خنَّاس أي: يخنس ويختفي ويهرب إذا ذكر الله ﷻ، ولذلك هو يستحوذ على النَّاس بأن ينسيهم ذكر الله: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، إنَّما حزب الرحمٰن حزب الله: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، هؤلاء لا يقدر عليهم الشيطان، قال النبيُّ ﷺ: «**ما منكم من أحدٍ إلَّا وقد وُكِّلَ به قرينُه من الجنِّ**». قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: «**وإيَّاي، إلَّا أنَّ الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلَّا بخير**»[1]، حتَّى الشيطان يمكن أن يُسْلِم.

لم يخلق الله تعالى مخلوقًا شرًّا محضًا:

ربُّنا سبحانه لم يخلق مخلوقًا شرًّا محضًا، ويستحيل أن يخلق الله شرًّا محضًا، الشرُّ المحض ليس من صنع الله ﷻ، الأصل كما قال الله تعالى:

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٤)، عن عبد الله بن مسعود.

QaradawiBooks.com

﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وكما قال النبي ﷺ: «**الخيرُ كلُّه في يدَيْك، والشرُّ ليس إليك**»[١]. فما نراه من شرٍّ فهو شرٌّ جزئي وإضافيٌّ ونسبيٌّ، وهو ضروري لأشياء أخرى، فالمطر ينزل أحيانًا ينفع كثيرًا من النَّاس والأحياء، ويصيب بعض الناس وبعض الأشياء، لكن هذا ليس مقصودًا، المقصود إحياء الأرض بعد موتها واستفادة النَّاس، فكونه يضرُّ أشياء هذا من لوازم الخير، فالله لم يخلق شرًّا محضًا، فكلُّ ما خلقه الله تعالى لحكمة عظيمة، ولا تعجب ـ أيُّها القارئ الكريم ـ إذا علمت أنَّ الشيطان ـ حتَّى الشيطان نفسه ـ فيه خير، وحتى إبليس نجد أنَّه في خطاب الله ﷻ لديه بعض الأدب: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ اعترف بالربوبيَّة. ونحو هذه الآيات فيها دليل على أنَّ الله لم يخلقه شرًّا، فقد ظلَّ آلاف السنين يتعبَّد مع الملائكة، ثمَّ أصابته هذه النكسة المُهْلِكة.

كيف أزلَّ إبليسُ آدمَ وزوجَه؟

قد يقال: إذا كان الشيطان ليس له سلطان على عباد الله المخلصين فكيف أزلَّ آدم وزوجه؟ ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ حتَّى أكلا من الشجرة، وحدث ما حدث؟ وكيف أزلَّ الصحابة في غزوة أُحُد؟ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وحتى الأنبياء سيِّدنا موسى لما وكز الرجل فقضى عليه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ [القصص: ١٥]، وقد كان وقع هذا قبل بعثته.

نقول: إنَّ الشيطان، ليس له سلطان على المخلصين، أي: ليس له سلطان على قلوبهم، فلا يستولي على قلوبهم يُصرِّفها كيف يشاء، أو

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، عن علي بن أبي طالب.

QaradawiBooks.com

ليس له سلطان بحيث يوقعهم في ذنبٍ لا يرجى العفو منه، وهو الشرك والكفر والعياذ بالله، إنَّما الوقوع في بعض الذنوب الَّتي تُمحى بالتوبة والاستغفار هذا قد يقع من المخلصين.

سيِّدنا آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

وسيِّدنا نوح قال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وسيِّدنا يونس قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وسيِّدنا موسى قال: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٥ ـ ١٧].

فالإنسان يمكن أن يغلب الشيطان بالتوبة كما جاء في الحديث الَّذي رواه الإمام أحمد وغيره عن أبي سعيدٍ الخُدْري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ إبليسَ قال لربِّه عز وجل: وعزَّتِكَ وجلالِكَ لا أبرحُ أُغْوي بني آدمَ ما دامت الأرواحُ فيهم. فقال له ربُّه عز وجل: فبعزَّتي وجلالي: لا أبرح أغفرُ لهم ما استغفروني**»[(١)].

أنت تُهلكهم بالذنوب، وهم يهلكونك بالاستغفار، وأنا أغفر لهم ما استغفروني.

(١) رواه أحمد (١١٣٦٧)، وقال مخرِّجوه: حسن. والطبراني في الأوسط (٨٧٨٨)، والحاكم في التوبة والإنابة (٢٦١/٤) وصحَّحه، ووافقه الذهبي، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

موعد الغاوين في جهنَّم:

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

هؤلاء الغاوون الَّذين اتَّبعوا غواية الشيطان وتزيين الشيطان، وساروا في رَكْب الشيطان مصيرهم إلى جهنَّم، دار العذاب في الآخرة، كما قال ﷻ: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٥]، مصيرهم إلى جهنَّم، إنَّ جهنَّم لمَوْعِدُهم: مكان لقائهم، الموعد هنا: اسم مكان، وأحيانًا الموعد اسم زمان، ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ هنا الموعد: اسم مكان، مكان وعدهم، مكان التقائهم: جهنم: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: كلهم مجتمعين لا يتخلَّف منهم أحد.

أبواب جهنم وأبواب الجنة:

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾

جهنَّم لها سبعة أبواب، كلُّ باب له طائفة سوف تدخل منه، وهو مميَّز عن غيره، وأمَّا الجنَّة ففيها ثمانية أبواب كما جاء في الصحيح: «**ما منكم من أحدٍ يتوضَّأ فيبلغ (أو فيسبغ) الوضوء، ثمَّ يقول: أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا عبد الله ورسوله إلَّا فتحت له أبواب الجنَّة الثمانية يدخل من أيِّها شاء**»[(١)].

وجاء في الصحيح: «**في الجنَّة ثمانية أبواب، فيها باب يُسمَّى الريَّان لا يدخله إلَّا الصائمون**»[(٢)].

(١) رواه مسلم (٢٣٤)، وأبو داود (١٦٩)، كلاهما في الطهارة، عن عقبة بن عامر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢) كلاهما في الصوم، عن سهل بن سعد.

QaradawiBooks.com

فالجنَّة فيها أبواب، والنار فيها أبواب، وكل باب له نصيبه: كم مليونًا؟ أو كم مليارًا؟ أو كم تريليونًا؟ أو كم دشليونًا؟ ما نعرف أعداد الَّذين سيدخلون إلى جهنَّم، إنَّما كلُّ باب له جزء مقسوم.

طبقات جهنَّم ودركات الكفَّار فيها:

بعض السلف فسَّر الأبواب بأنَّها أطباق ـ جمع طبق، أي: طبقة ـ في كلِّ باب، أي: في كلِّ طبقة، فالنَّار طبقات بعضها فوق بعض متوالية في المراتب[1]، أو دركات كما جاء في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

إذن يوجد درك أسفل، ودرك أعلى، وأدراك متوسطة بين الأسفل والأعلى، وهذا معقول؛ لأنَّ النَّاس ليسوا سواسية فيها، فهناك الكافر، وهناك الكافر الظالم: الَّذين كفروا وظلموا، أو الَّذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله، كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، فساد هذا ليس في نفسه، بل أفسد غيره.

الإنسان الظالم الَّذي ذبح من البشر من ذبح، ذبح آلافًا من النَّاس، أو ملايين من النَّاس، من المستضعفين والمظلومين، هل هذا الكافر يتساوى مع الفاسق الَّذي فسق في نفسه، وشرب الخمر، وارتكب الزنى، وعمل المعاصي، دفعته شهواته إلى مثل هذا، هل هذا مثل ذاك؟

(١) وهو قول كثير من المفسِّرين، جعلوها سبع طبقات متوالية، هي جهنَّم فلظى فالحُطَمة فالسعير فسَقَر فالجحيم فالهاوية. وجهنم إحدى هذه الطبقات وأولاها، ولكلِّ فئةٍ من مطيعي إبليس طبقة.

QaradawiBooks.com

اختلاف أنواع العذاب في جهنَّم:

ولذلك يقول الله تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فهناك عذاب شديد، وهناك أشد العذاب.

وهدَّد الله سبحانه الَّذين طلبوا من سيِّدنا عيسى المائدة، فقال تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، بعدما طلبتم المائدة وجاءتكم من السماء، ثمَّ تكفرون بعد ذلك ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فأنواع العذاب تتفاوت، كما أنَّ درجات النعيم تتفاوت.

درجات النعيم في الجنَّة:

القرآن ذكر لنا في سورة الرحمٰن: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦]، وذكر لنا ما في الجنَّتين من نعيم، ثمَّ قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٢]، النبيُّ ﷺ قال: «**فإذا سألتُم اللهَ فاسألوه الفردوس، فإنَّه أوسط الجنَّة، وأعلى الجنَّة، فوقه عرش الرحمٰن، ومنه تفجَّر أنهارُ الجنَّة**»[1].

فالجنَّة تتفاوت في درجاتها، والنَّار تتفاوت في دركاتها.

اللهمَّ إنَّا نسألك الجنَّة وما قرَّب إليها من قولٍ أو عمل، ونعوذ بك من النَّار وما قرَّب إليها من قولٍ أو عمل، وارزقْنا الفردوسَ الأعلى.

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، عن أبي هريرة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الرابع

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۞ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۞ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۞ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٥ ـ ٥٠].

المقابلة بين أهل النَّار وأهل الجنَّة:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾

بعد أن ذكر الله أهل النَّار ذكر أهل الجنَّة على طريقة القرآن، إنَّه يقرن الوعيد بالوعد، والترهيب بالترغيب، والبشارة بالنذارة، وهكذا.

فبعد أن تحدَّث عن أهل جهنَّم ليُخَوِّفنا من مصيرهم، ذكر أهل الجنَّة ليُحبِّبنا في عملهم وسلوكهم، لنسلك بهم مسلكهم ونقتدي بهم.

أساس التقوى وثمرتها ومراتبها:

مَن المتَّقون؟ المتَّقون هم الموصوفون بالتقوى، تقوى الله ﷻ، وأساس التقوى: خشية الله، ولذلك أشار النبيُّ ﷺ إلى صدره، وقال ثلاثَ مرات: «**التقوى هاهنا**»[1] التقوى كما ذكر القرآن أصلها في القلب،

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٨٧٢٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وثمرتها على الجوارح بأداء الفرائض وأداء النوافل، واجتناب المحرمات، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، ويرتقي الإنسان بتقواه، كما جاء في بعض الأحاديث: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتَّقين حتَّى يَدَع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس**»[(١)]، فالجنَّة لا يدخلها إلَّا المتَّقون.

وقد ذكر الله سبحانه المتَّقين في آيات كثيرة، في أوائل سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣].

وفي سورة آل عمران يقول: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من هم؟ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٥].

المتَّقون ليسوا معصومين:

المتَّقون ليسوا معصومين من الخطأ والخطيئة، ليسوا أنبياء مقرَّبين، ولا ملائكة مطهَّرين، هم بشر من البشر، وقد يقع المتَّقي في المعصية، والفرق بينه وبين غيره: أنَّه سريع اليقظة، وسريع الأوبة إلى الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥١) وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢١٥)، والحاكم في الرقاق (٣١٩/٤) وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وضعَّفه الألباني في ضعيف الترمذي (٤٣٥)، عن عطية السَّعْدي.

QaradawiBooks.com

﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۞ وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ أي: إخوان الشياطين ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢]، المتَّقي يتذكَّر جلال الله، ويتذكَّر اطلاع الله عليه، ويتذكَّر حساب الله، ويتذكَّر الجنَّة والنار، ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، أبصر الغاية، وأبصر الطريق، فامتنع عن الحرام، وامتنع من الكسل عن الفرائض.

المتَّقون ليسوا معصومين، ولكن كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ ارتكبوا كبيرة ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ارتكبوا صغيرة ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

هل هناك أحد يغفر الذنوب إلَّا الله؟ من يغفر الذنوب إلَّا الله؟ ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

جنات المتَّقين:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[1]

يوجد أكثر من جنَّة، وذكرت لنا سورة الرحمٰن أربع جنَّات: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦ ـ ٦٢]، والرسول ﷺ قال لأمِّ حارثة: «**يا أمَّ حارثة، إنَّها جنان في الجنَّة**»[2]. حينما

(١) الجنات: جمع جنة، وهي ما يحتوي على أشجار وثمار وزروع وأنهار وقصور، من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين. وجاء لفظ (جنات) مجموعًا: لأن دار النعيم فيها جنان متعدِّدة باعتبار أقسامها، ويجمعها جميعًا اسم (جنة) باعتبار أنَّها كلها بمثابة (دار للنعيم). والعيون: جمع عين، وهي ما ينبع من الماء والعسل والخمرة واللبن. والمراد: في مكان تحيط به الجنَّات والعيون، لا أنَّهم في العيون نفسها. كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤].

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٩)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

أصيب ولدها في غزوة بدر، جاءه سهم طائش من مشرك فقتله، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله: قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنَّة أصبر وأحتسب، وإن تك الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: «**ويحك أو هبلت، أَوَجنَّة واحدة هي؟! إنَّها جنان كثيرة، وإنَّه في الفردوس الأعلى**»[1]. إنَّ ابْنَكِ ـ وهو من أهل بدر ـ أصاب الفردوس الأعلى.

العيون والظلال:

ولذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥]، ذكر العيون بالذات؛ لأنَّ العرب كانت المياه عندهم قليلة، فالقرآن عربي ويراعي هذا اللسان العربي، يراعي البيئة العربيَّة، وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١]، الظلال يُحتاج إليها في البلاد الحارَّة، هذه الظلال تحت الشجرة، كأنَّ الجنَّة في ظلال وعيون، وهنا يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، عيون تتفجر من الجنَّة، كما ذكر في سورة الرحمٰن: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمٰن: ٥٠]، أي: في الجنَّتين العلويَّتَيْن، والجنَّتان اللتان هما أدنى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٦]، وفي سورة الإنسان: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]، وفي سورة المطفِّفين: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨]، عيون في الجنَّة يتمتَّعون بها، فمنها: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧]، ألوان من الشراب غير الأنهار الأخرى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٦٧).

QaradawiBooks.com

استقبال الملائكة للمُتَّقين عند دخول الجنَّة وسلامهم عليهم:

﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾[1]

مَن الَّذي يقول لهم: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا ﴾؟ الغالب أنَّ القائل الملائكة: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، فالذين يستقبلون أهل الجنَّة هم الملائكة، ويستقبلونهم مرحِّبين.

فدخول الجنَّة، ليس دخولًا فقط، ولكن دخول مع استقبال وترحيب، يرحِّبون بهم: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾، ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

الملائكة حول الإنسان قبل أن يدخل، وبعد أن يدخل، يرحِّبون بداخلي الجنَّة، بأهل الجنَّة: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾: من كلِّ آفة، أو بتحيَّة؛ لأنَّهم حين يدخلون الجنَّة يُحيَّون: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس: ٥٨]، سلام من الله، وسلام من الملائكة: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٤]، ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا ﴾ [مريم: ٦٢]، ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۞ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

---

(١) أي: ادخلوها مصحوبين بسلام تحية تكريمية لكم، وحالة كونكم آمنين بعد دخولها من كلِّ ما يخاف منه، حتى من النقص ممَّا تحبون من لذَّات ونعيم، فكل ما فيها متجدِّد، لا ينقطع ولا ينفد.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

دخول الجنَّة بسلامٍ وأمن:

فهم يدخلونها بسلام، سـلام أي: من الآفات، أو سلام التحيَّة، هذا وذاك، يحيون وهم سالمون من كلِّ آفة وآمنون.

﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾: لا خوف عليكم بعد اليوم.

أشدُّ ما يُنَكِّد على الإنسان حياته الخوف، ولذلك لما امتنَّ ربُّنا على قريش قال: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ [قريش: ٤]، وشر ما تُبْتَلى بـه الجماعـات: الجوع والخـوف: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

أمَّا الأمـن، فهو نعمـة عظيمـة: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ [سبأ: ١٨]، حينما تلقَّى يوسف أبويه وإخوته قال لهم: ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩]. آمنين من كلِّ سوء، لن يقبض عليكم أحد.

الجنَّة يدخلها من يدخلها آمنًا من كلِّ سـوء، كمـا قال تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢]: لا يحزنـون على ما مضى، ولا يخافون من مستقبل، لا يوجد شـيءٌ يخوِّفهم، علام يخافون؟ فعن النبيِّ ﷺ قال: «**ينادي منادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تسقموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تبأسوا أبدًا**». فذلك قوله ﷻ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[(١)] [الأعراف: ٤٣]. فليس في الجنَّة شيء مَخُوف.

﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾، ولذلك تُسَـمَّى الجنَّة دار السلام، كما قال تعالـى: ﴿ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، فهي أمنٌ وسلامٌ من كلِّ شيء.

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٧)، وأحمد (٨٢٥٨)، عن أبي سعيد وأبي هريرة.

QaradawiBooks.com

سلامة صدور أهل الجنَّة من الغلِّ:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾

من خصائص الجنَّة ومزاياها: أنَّه ليس فيها غِلٌّ ولا حسدٌ ولا كراهيةٌ ولا أحقادٌ ولا ضغائن، مَنْ دخل الجنَّة صُفِّي قلبُه من كلِّ شيء، طهَّره الله من كلِّ غلٍّ، حتَّى الَّذين تَعَادَوْا في الدُّنيا إذا دخلوا الجنَّة انتهت هذه العداوات، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، المتَّقون لا عداوات بينهم أبـدًا، فهم أحبَّاء أخلَّاء أصدقـاء، لا يزال حبُّهم مستمرًّا إلى يوم القيامة، ويدخل معهم الجنَّة، وإذا كان أحدُهم له مع أخيه شيء في الدُّنيا، شـيء من الخصومة أو من النزاع، تجد صدرَه يوم القيامة صافيًا تمامًا، ولذلك قـال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾. وأمَّا الآخرون فيعادي بعضهم بعضًا، ويَكْفر بعضهم ببعضٍ، ويلعن بعضُهم بعضًا.

والغلُّ: الحقـد والبغضاء، نُـزِعَ هذا من صدره كما قال في سـورة الأعراف: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فهؤلاء الَّذين دخلوا الجنَّة يشعرون بالحبِّ الخالص.

الجنَّة دار حب، ليس فيها مجالٌ لبُغض، ليس فيها مجال لمنافسـة، والجنَّة طبعًا درجـات، هل الَّذي في درجةٍ دنيا يحسـد الَّذي في درجة أعلى منه، لو كان يحسده سـتكون الحياة نَكِدَة، لأنَّ هناك من هو أعلى منه بكثير، خصوصًا إذا كان زميله في العمل، أو السكن، أو كان ينافسه في الدُّنيا، والنسـاء يغار بعضهـنَّ من بعض، لكـن لا يوجد غيرة ولا منافسة ولا حسد في الجنَّة بحمد الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

QaradawiBooks.com

سلامة صدور الصحابة رضي الله عنهم:

يدخل أهل الجنَّة الجنَّة إخوانًا، لما بينهم من محبَّة وألفة وصفاء قلوب، انتهت العداوات، ونسي ما كان بينهم في الدُّنيا، وهذا من فضل الله تبارك وتعالى على أهل الجنَّة، حتَّى لا يكدرها شيء من مُكَدِّرات الدُّنيا، وأول من ينطبق عليهم هذا هم الصحابة رضوان الله عليهم، وما شجر بينهم من خلاف، حتَّى قاتل بعضهم بعضًا، يدخلون الجنَّة إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

دخل أحد أبناء طلحة بن عُبَيد الله، وهو أحد العشرة المُبَشَّرين بالجنَّة، وأحد الستَّة أصحاب الشورى، دخل على عليٍّ رضي الله عنه، وكان طلحة قد قاتل عليًّا في معركة الجمل كما نعرف، فرحَّب به عليٌّ وأجلسه بجواره، وقال له: إنِّي لأرجو أن أكون أنا وأبوك من أهل هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، وكان بعض شيعة الإمام عليٍّ من المتعصِّبين يجلس بجواره، فأنكر اثنان منهم هذا الكلام، أحدهما: الحارث الأعور الهمداني المعروف، فقال ردًّا على كلام الإمام علي: إنَّ الله أعدل من أن يفعل ذلك، إنَّا نقتلهم بأيدينا، ثمَّ يكونوا معنا في الجنَّة! فرد عليه سيِّدنا عليٌّ رضي الله عنه وكرم الله وجهه بغلظةٍ وقال: اذهبْ أنت وصاحبك أبعدَ أرضٍ وأسحقها، إذا لم أكن أنا وطلحة من أهل هذه الآية، فلمن تكون هذه الآية[1]؟

كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المُبَشَّرون بالجنَّة أصحاب المواقف الَّذين شهدوا المشاهد، وقاتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحت لوائه، وبايعوه تحت الشجرة، وأعلن الله رضاه عنهم، وهم من السابقين الأوَّلين

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/٣٧٦)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

المهاجريـــن، الَّذين قال الله فيهـــم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. إذا لم أكن أنا وطلحـــة والزُّبَيْر من أهل هذه الآية فمن يكون أهل هذه الآية؟! ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾.

مجالس أهل الجنَّة:

﴿إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[١]

يجلسون على السُّرُر ويتَّكئون عليها، والاتِّكاء على السُّرُر دليلٌ على الرفاهية والراحة، ليســوا مُكَلَّفين بأي عمل، ينام الواحد على الســرير، يتَّكئ، يضطجع، يجلس كما يشـــاء، ليــس هناك من يطالبــه بعمل أو تكليف، فوقت العمل والــدوام والتكليف قد انتهى بانتهاء الدُّنيا، وأهل الجنَّة في نعيم مقيم؛ لأنَّ العمل كان في الدُّنيا، والجزاء في الآخرة، فهم الآن يأخذون أجرهم وجزاءهم من الله ﷻ.

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ التقابل: هو مواجهة الوجوه للوجوه، أي: كل شخص يقابل الآخر، ويرى وجهه، ولا يرى قفاه.

هناك مجالــس المتقابلين ومجالــس المتدابرين، النبــيُّ ﷺ نهى عن التدابُر[٢]، أي: يعطي كلُّ واحدٍ دُبُره ـ أو ظهره ـ لأخيه، يعطي له قفاه، كأنَّ

(١) ﴿إِخۡوَٰنًا﴾: جمع أخ، حال من الضمير في ﴿صُدُورِهِم﴾. أي: ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ، حالة كونهم إخوانًا متحابِّيــن متصافين ذوي تواصل وتوادٍّ. ﴿سُرُرٖ﴾: جمع ســرير، وهو مجلس عالٍ مُوطَّأ للجلوس عليه دليلَ الرفعة والكرامة التامَّة. ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: حالٌ أيضًا: من الضمير المتصل في ﴿صُدُورِهِم﴾.

(٢) إشــارة إلى حديث أبي هريــرة المتفق عليه: «لا تحسَّســوا، ولا تجسَّســوا، ولا تقاطعوا، =

QaradawiBooks.com

كلَّ واحدٍ يقول للآخر: لا أريد أن أرى وجهك. إنَّما المتحابُّون يتقابلون ويتواجهون: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

لا إعياء ولا تعب في الجنة:

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾

في هذه الآية كلمتان: إحداهما أنَّه لا يمسُّ أهل الجنَّة في الجنَّة نصب: أي إعياء، أو تعب، لا يتعب من أي شيء، لا يوجد فيها أي شغل، بل يأتيهم ما يشتهونه وما يطلبونه فورًا.

وأحيانًا بعضهم يطلب شغلًا ليتمتَّع به، كما ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يومًا يحدث، وعنده رجل من أهل البادية: «**إنَّ رجلًا من أهل الجنَّة استأذن ربَّه في الزرع، فقال له: ألستَ فيما شئتَ؟ قال: بلى، ولكنِّي أحبُّ أن أزرع**». قال: «**فبذر، فبادر الطَّرْف نباتُه واستواؤه واستحصادُه، فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونَك يا ابنَ آدم، فإنَّه لا يُشْبِعُكَ شيء**». فقال الأعرابي: والله لا تجده إلَّا قرشيًّا أو أنصاريًّا، فإنَّهم أصحاب زرع، وأمَّا نحن فلسنا بأصحاب زرع. فضحك النبيُّ ﷺ[1].

فلا يوجد في الجنَّة تعب: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾.

خلود أهل الجنة:

والكلمة الثانية: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ أبدًا، فهم غير مبعدين عنها بزوال أو فناء أو إقصاء، ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، لا يقعدون فيها

= ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا». رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣) (٢٨).

(١) رواه البخاري في المزارعة (٢٣٤٨)، وأحمد (١٠٦٤٢).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ألف سنة ثمَّ يخرجون، ولا مليون سنة ولا تريليون سنة، بل خلود للأبد، ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧]، كما قال الله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، لا ينفد ولا ينتهي، هذا من مزايا نعيم الجنَّة: الخلود الأبدي، فإنَّ تمام النعمة الخلود.

شرف العبوديَّة:

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[1]

ثم قال الله تعالى بعدها، عن أهل النَّار وأهل الجنَّة: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

﴿عِبَادِيٓ﴾، هنا هل هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾؟ أم عباده جميعًا المذكورون في قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، حتَّى الَّذين أسرفوا على أنفسهم ظلُّوا عباده سبحانه! لم يحرمهم من العبوديَّة، كما يقول في موضع آخر: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]، فكلُّهم عباد.

وأنا أعتقد أنَّ المقصود هنا في الخطاب الجميع: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ العصاة والمطيعين، والمؤمنين والكافرين، نبِّئ الجميع هذه الرسالة، نبِّئهم: أي: أخبرهم الخبر المهمَّ ذا الشأن، فالنبأ: هو الخبر الَّذي له شأن.

(١) في هاتين الآيتين قَصْران: الأول: قصر صفتي الغفور الرحيم على الله، فلا يتَّصف بكمال هاتين الصفتين إلا الله وحده. وهو قصر حقيقي من قصر الصفة على الموصوف. والثاني: قصر صفة العذاب الأليم البالغ غاية الإيلام على عذاب الله سبحانه. وهو قصر حقيقي من قصر الصفة على الموصوف. وأداة القصر فيهما تعريف طرفي الإسناد.

QaradawiBooks.com

توكيدات المغفرة والرحمة:

ما هذا الخبر؟ أو ما هذا النبأ؟ ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: إنَّ الجملة الاسميَّة أوكد من الجملة الفعليَّة، والجملة المؤكَّدة بـ «أنَّ» أو «إنَّ» أقوى من الجملة الَّتي ليس فيها «إنَّ» ولا «أنَّ»، وقد جاء بعد قوله تعالى ﴿أَنِّيٓ﴾ الضمير: ﴿أَنَا﴾ ضمير الفصل مؤكِّد آخر، والخبر معرفة، وهو يفيد الحصر، ففرق أن تقول: أنا فارس، أو أن تقول: أنا الفارس، فقولك: أنا فارس، أي: مثلك كثير، أمَّا قولك: أنا الفارس، أي: ليس هناك فارس غيري، ﴿أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: أنِّي أنا الوحيد الغفور، كل هذه تأكيدات، وبعد ذلك ﴿ٱلْغَفُورُ﴾، لا يقول: الغافر؛ لأنَّ الغفور صيغة مبالغة لاسم الفاعل «غافر»، والغفور هو كثير الغفران، والمغفرة: ستر الذنوب في الدُّنيا والتجاوز عنها في الآخرة. وليس هناك ذنب يستعصي عن المغفرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، كلُّ ذنبٍ حتَّى الشرك يُغْفَر بالتوبة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والرحيم أيضًا صيغة مبالغة لاسم الفاعل «راحم»، فلم يقل: أنا الغافر الراحم، ولكن قال: أنا الغفور الرحيم، كل هذه من صيغ المبالغة في القرآن.

وذكرت كلمة: «الرحيم» في كتاب الله معرفة أربعة وثلاثين مرَّة غير البسملة، وإذا حسبنا مائة وثلاث عشرة مرَّة «بسم الله الرحمٰن الرحيم» نضيفها إلى الأربعة والثلاثين، فهذا يشعرك أنَّ مغفرة الله ورحمته تسع كلَّ شيء.

وذُكِرَتْ كلمة «رحيم» منكَّرة واحدًا وستِّين مرَّة، وذكر «رحيمًا» ـ منصوبة ـ عشرين مرَّة، فيكون مجموعها مائة وخمس عشرة مرَّة.

QaradawiBooks.com

سر ارتباط المغفرة بالرحمة وتقديم المغفرة على الرحمة:

وقرنت المغفرة مع الرحمة بصيغها المختلفة أربعة وستِّين مرَّة.

إنَّ مغفرة الله ورحمته تسع كلَّ شيء، والغفور هو الَّذي يعفو عن الذنوب، ويمحوها ويسترها، فلا يبقي لها أثرًا، ولكنَّ الرحيم هو الَّذي يعطي الثواب.

الغفور لن ينالك منه العقاب، والرحيم الَّذي يعطيك الثواب.

المغفرة تخلية، والرحمة تحلية.

الرحمة حتَّى تدخل الجنَّة، ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧]، وفي الجنَّة كلُّ شيء، ولذلك قالوا: الجنَّة فيها رحمة الله؛ لأنَّ الجنَّة مظهر رحمة الله ﷻ، فهو رحيم يعطي الجنَّة، ولذلك دائمًا يُقَدِّم المغفرة على الرحمة.

استغفار الأنبياء وطلبهم الرحمة:

سيِّدنا آدم وزوجه حينما شَعَرَا بخطيئتهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وسيِّدنا نوح قال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وسيِّدنا موسى قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

QaradawiBooks.com

وقومه بعد أن علموا بضلالهم باتِّخاذهم العجل قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

والرسول محمَّد ﷺ يقول كما أمره ربُّه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، والمؤمنون يقولون في دعائهم: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، اغفرْ لنا وارحمْنا، فالمغفرة مقرونة بالرحمة، والرحمة مسبوقة بالمغفرة، فنحن دائمًا نطلب المغفرة والرحمة.

فتح باب الأمل والجمع بين الخوف والرجاء:

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وبهذا يرجي النَّاس، يفتح لهم باب الرجاء والأمل، حتَّى لا يَيْئسوا من رَوْح الله: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ولا يقنطوا من رحمة الله: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

فهذا هو الرجاء، ثمَّ يأتي بعد ذلك الخوف، ليجتمع الرجاء والخوف: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾: لا تغرَّنَّكم مغفرتي ورحمتي فتتَّكِلوا عليها، وتفعلوا ما فعل اليهود الَّذين قال الله عنهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، لا تتكلوا على المغفرة، لا بدَّ أن تخافوا أيضًا من بطشي ومن عذابي.

QaradawiBooks.com

المغفرة من أسمائه تعالى والعذاب من أفعاله:

وعذاب الله ليس عذابًا هينًا: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ فانظر إلى هذه المؤكِّدات: ﴿ وَأَنَّ ﴾ وإضافة العذاب إلى الله ﷻ: ﴿ عَذَابِي ﴾ وضمير الفصل: ﴿هُوَ﴾، ووصف العذاب بأنَّه: ﴿ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ أي: المؤلم الموجع، فكل هذه مؤكِّدات تدلُّ على شدَّة العذاب.

ولكن نجد فرقًا بين الصفتين: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، فجعل المغفرة والرحمة من أسمائه وصفاته، أنا الغفور الرحيم. ولم يقل هنا: وأنِّي أنا المعذِّب، لا يوجد من أسمائه الحسنى: المُعَذِّب.

فهناك ذكر الأسماء، وهنا ذكر الأفعال، ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي ﴾ فالعذاب من أفعاله، والمغفرة والرحمة من أسمائه وصفاته، وفرق بين الفعل وبين الاسم والصفة.

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ وهذا يدلُّنا على أنَّ الرجاء أغلب، وأنَّ رحمة الله أثبت وأوسع، فقد سبق قوله: ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ على قوله: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾.

وفي الحديث عن أبي هُرَيْرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قضى اللهُ الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي غلبت غَضَبي**»[1].

المؤمن بين الرجاء والخوف:

ولهذا علينا أن نخاف عذاب الله ونخشى عذابه، كما نرجو رحمته، ونطمع في جنَّته، كما وصف الله بعض عباده الصالحين، فقال: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وكما وصف الإنسان

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٤)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١).

QaradawiBooks.com

المؤمن، فقال: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، يحذر من ناحية، ويرجو من ناحية أخرى، وبذلك يكون الإنسان في حالة توازن بين الرجاء الخوف، فلا يغلب عليه الرجاء حتَّى يأمن مكر الله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولا يغلب عليه الخوف حتَّى ييئس من رَوْح الله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وإنَّما يكون دائمًا بين الخوف والرجاء، هذا شأن الإنسان المؤمن.

وقد شبَّه الإمام الغزالي[1] النفس البشريَّة بالدابَّة، أحيانًا تكون دابَّة حرونًا، تحتاج أحيانًا إلى بعض الخضروات والبرسيم لكي يسوقها، وتحتاج أحيانًا إلى العصا، فكذلك النَّفْس تحتاج إلى الرجاء والخوف، وأن تكون في حالة توازن، وهذا ما تفيده هذه الآية الكريمة: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾، ومثلها آيات كثيرة في القرآن الكريم: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، وقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

وهكذا يجمع القرآن بين الخوف والرجاء، وبين ما يجلب الخوف وما يجلب الرجاء، ليكون الإنسان المؤمن في حالة توازن، ويسير في

(١) منهاج العابدين للغزالي صـ ١٧٩، تحقيق د. محمود مصطفى حلاوي، نشر مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

QaradawiBooks.com

طريقه إلى الله راغبًا في الخير راغبًا عن الشرِّ، مريدًا لرضوان الله تعالى، مبتغيًا الجنَّة ومثوبة الله، حذرًا من النَّار وعذاب الله.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من عباده المُخْلَصين، وأن يجعلنا من عباده المُخْلِصين، وأن يجعلنا من وَرَثة جنَّة النَّعيم، وأن يجعلنا من سكَّان الفردوس الأعلى، إنَّه سميعٌ قريب مجيب.

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس الخامس

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۞ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۞ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۞ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۞ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۞ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۞ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۞ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۞ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۞ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۞ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۞ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۞ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۞ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۞ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۞ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۞ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۞ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۞ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٧٧].

ثلاث قصص تتحقَّق فيها مظاهر الرحمة والعذاب:

وبعد أن قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾، ذكر ثلاث قصص تُبيِّن كيف تتحقَّق فيها مظاهر الرحمة

نسخة مجانية

الإلٰهيَّة، وكيف يتحقق أيضًا العذاب الأليم، هذا ما تحكيه القصص الَّتي قصَّها علينا القرآن، أو قصَّتها علينا السورة بعد ذلك، ذكرت السورة ثلاث قصص:

الأولى: قصَّة إبراهيم مع لوط، حينما جاءتا في قصَّة واحدة.

والثانية: قصَّة أصحاب الأَيْكة، وهم الَّذين أُرْسِلَ إليهم شُعَيْب.

والثالثة: قصَّة أصحاب الحِجْر، وهم ثمود، الَّذين أرسل إليهم صالح عليه السلام.

قصَّة ضيف إبراهيم:

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

أمَّا القصَّة الأولى: فهي الَّتي يقول الله تعالى فيها: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الواو عاطفة، أي: نبئ عبادي أنِّي أنا الغفور الرحيم، ونبئهم أيضًا عن خبر ضيف إبراهيم.

وكلمة «ضيف» تصلح للواحد وتصلح للجمع، وتجمع أيضًا على أضياف وضُيُوف وضِيَاف وضِيفَان. ولذلك هنا ضيف إبراهيم جماعة، لم يكونوا واحدًا، ولكن كانوا جماعة، وفي سورة الذاريات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥]، ولذلك قال: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾، فهم مجموعة.

إبراهيم أبو الضِّيفان:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾: وإبراهيم كان يُسَمَّى أبا الضِّيفَان؛ لأنَّه كان ممَّن يكرمون الضيف، ويفتحون أبوابهم للضيوف: مَنْ عرفهم، ومَنْ

QaradawiBooks.com

لا يعرفهم. عن عكرمة، قال: كان إبراهيم عليه السلام يُكنَّى أبا الضِّيفان، وكان لقَصْره أربعةُ أبوابٍ لكي لا يفوته أحد[١].

هناك أناس يُكرمون الضيوف إذا عرفوهم، وكانت لهم بهم صلة، ولكن إبراهيم يُكرم كلَّ ضيف، كلَّ غريب عن البلد يستضيفه عنده، فاستضاف هؤلاء القوم الَّذين لا يعرفهم، وذبح لهم عجلًا حنيذًا مشويًّا، وقرَّبه إليهم.

من كرم الضيافة أن تقرِّب الطعام إلى المضيف، تقدِّمه له وتقرِّبه إليه، فحينما قدَّم إليهم هذا العجل المشوي، لم يأكلوا منه: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]، الضيف عندما يقدَّم له الطعام ويأبى أن يأكل منه، لا بدَّ أن يخاف صاحب البيت منه، ماذا يريد هذا الضيف؟

الفرق بين قول الملائكة: «سلامًا» وقول إبراهيم: «سلام»:

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾

هم قالوا: سلامًا، وإبراهيم قال: سلام. يقولون في العربيَّة: إنَّ «سلامٌ» أوكد من «سلامًا»؛ لأنَّ «سلامًا» هذه جملة فعليَّة، أي: نُسَلِّم سلامًا، أمَّا «سلام» فجملة اسميَّة، أي: سلامٌ مني، أو تحيتي سلام. وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]. فإبراهيم ردَّ التحيَّة بأحسن منها، قال: ﴿سَلَـٰمٌ ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، أنكر وجوههم، ليسوا معروفين له، وكما ذكرت السورة الأخرى، زاد في إنكاره أنَّهم لم يأكلوا من طعامه: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]، وهنا في سورة

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٣٦/٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦١٧).

QaradawiBooks.com

الحِجْر: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]، أي: فزعون خائفون؛ لأنَّهم لم يأكلوا من طعامه، وهذا أدَّى إلى الخوف منهم.

البشرى بالغلام العليم:

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾(١)

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ كشفوا عن حقيقتهم وعرَّفوه أنَّهم ملائكة من الله ﷻ.

﴿إِنَّا﴾ رسل ربِّك ﴿نُبَشِّرُكَ﴾: نُبلِّغك ما يسرك ويسعدك ﴿بِغُلَامٍ﴾: شابٍّ بالغ ﴿عَلِيمٍ﴾: ذي علمٍ كثير.

قدموا إليه وبشَّروه بغلامٍ عليم، قالوا: إنَّ هذا الغلام هو إسحاق عليه السلام؛ لأنَّ إسماعيل جاءته به البشرى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

إنَّ سيِّدنا إبراهيم رزقه الله غُلَامين على الكِبَر، كما ذكرنا في سورة إبراهيم، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

فإسماعيل أوَّل من بُشِّر به، بعد أن نُجِّي من النَّار قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠، ١٠١].

المراد بالغلام الحليم والغلام العليم:

إسماعيل غلام حليم، وإسحاق غلام عليم، ويبدو حلم إسماعيل عليه السلام

(١) قرأ حمزة: (نَبْشُرُكَ) بفتح النون وإسكان الباء وتخفيف الشين وضمها، من البِشْر، وهو البشرى والبشارة. وقرأ الباقون: ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ بضم النون وفتح الباء وتشديد الشين المكسورة، من بَشَّر، المُضَعَّف على التكثير. انظر: النشر في القراءات العشر (٢٢٩/٢)، ومعجم القراءات القرآنية (٥٦٢/٤).

QaradawiBooks.com

في قصَّته مع الذبح، حينما قال له أبوه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وأسلم عنقه لله، فهذا نهاية الحلم، وذلك يدلُّ على أنَّ قوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ هنا، غير قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠] هناك.

البشرى بإسحاق بعد إسماعيل:

وجاءت البشارة بإسحاق مكافأة لإبراهيم على تضحيته وطاعته لأمر ربِّه في شأن ابنه إسماعيل، ولذلك قال في سورة الصافَّات: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣].

بعد أن ابتُلي بالبلاء المبين، فدى الله إسماعيل بذِبْح عظيم قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ۝ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٧ ـ ١١٢]، فهذه البشارة جاءت بعد قصَّة إسماعيل عليه السلام قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣].

الإجمال والتفصيل في قصص الأنبياء:

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾

في سورة هود ذكرت هذه القصَّة بتفصيل أكثر، وفيها ذكر زوج إبراهيم عليه السلام حينما عجبت: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣].

QaradawiBooks.com

لقد فصَّل في سورة هود، وأجمل في غيرها؛ لأنَّ القرآن يذكر القصص في سور مختلفة، ولكنَّه في كلِّ سورة يذكرها بطريقة غير الطريقة الَّتي ذكرت في سورة أخرى، يجمل هنا ويُفَصِّل هناك، يذكر جوانب من القصَّة في بعض ما يذكر من السور، ولا يذكر الجوانب الأخر، على حسَب السياق وما يقتضيه.

﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾[١]

بشَّروه بغلامٍ عليم، وكأنَّه يريد أن يسمع البشرى مرَّة أخرى. بشَّرناك بالحقِّ؛ لأن ما تُبشِّر به الملائكة عن الله ﷻ لا يكون إلَّا حقًّا، ولا يكون إلَّا أمرًا ثابتًا لا يتخلَّف، وما وعد الله وعدًا إلَّا أنجزه: ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [الكهف: ٩٨]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٩]، ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦].

القنوط من رحمة الله من لوازم الضلال:

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ [٢] مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[٣]

يستحيل أن أقنط؛ لأنَّ القنوط من مظاهر الضلال، كما أنَّ اليأس من لوازم الكفر، وقد قال سيِّدنا يعقوب عليه السلام حفيد إبراهيم لبنيه حينما

(١) ﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بالصدق وما هو واقع حقًّا، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾، أي: لا تكن من اليائسين من رحمة الله وفضله.

(٢) قرأ أبو عمرو والكسائي وخلف: (يَقْنِط) بكسر النون. . وقرأ باقي العشرة: ﴿يَقْنَطُ ﴾ بفتح النون. والقراءتان لغتان عربيتان. انظر: المبسوط في القراءات العشر صـ ٢٦٠، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه صـ ٢٠٥، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم، نشر دار الشروق، بيروت، ط ٤، ١٤٠١هـ.

(٣) ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾: المخطئون طريق المعرفة الحقِّ، فلا يعرفون سعة رحمة الله، وكمال علمه وقدرته. والاستفهام للإنكار الإبطالي، أي للنفي والاستبعاد، يريد به إبراهيم نفيَ قنوطه.

QaradawiBooks.com

أرسلهم إلى مصر: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فانظر: إنَّها حقًّا ذرية بعضها من بعض، كما قال الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ [آل عمران: ٣٤].

يعقوب عليه السلام يقول: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، لا ييئس من روح الله إلَّا من يجهل قدرة الله عز وجل، ويجهل نفوذ مشيئته، وأنَّه إذا أراد شيئًا قال له: كنْ. فيكون ولا بدَّ، فلا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، فلا يمكن أن يكون نبيٌّ من أنبياء الله يائسًا أو قانطًا: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

ويقول الله عز وجل مخاطبًا نبيَّه محمدًا ﷺ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

تمثُّل الملائكة بصورة بشريَّة:

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

التفت إبراهيم إلى هؤلاء الملائكة الَّذين جاؤوا في صورة بشر، والملائكة تستطيع أن تتصوَّر بصورة البشر، ولكن لا يتصوَّرون إلَّا في صورة شريفة، لا يتصوَّرون في صورة البهائم ولا الثعابين، ولا أمثال هذه الأشياء، وإنَّما تتصوَّر الملائكة بصورة كريمة مثل الإنسان، كما كان جبريل عليه السلام يأتي أحيانًا إلى النبيِّ ﷺ في صورة بشر، كما جاء في صورة الرجل الَّذي لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه من الجالسين أحد[1]، وهو

(١) رواه مسلم في الإيمان (٨)، وأبو داود في السنة (٤٦٩٥)، عن عمر.

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

غريب قادم من الخارج، وكما كان يجيء في صورة واحد من الصحابة اسمه: «دِحْيَة الكلبي»[١]، وكان من أجمل النَّاس وأحسنهم صورة، فالملائكة تتصوَّر بصور بشريَّة، لذلك جاؤوا إلى إبراهيم عليه السلام في صورة البشر.

الشأن العظيم الَّذي أُرسِلَتْ به الملائكة:

التفت إبراهيم عليه السلام إليهم، وقال: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: ما أمرُكم الخطير؟ وما شأنكم الَّذي أُرْسِلْتُم لأجله سوى البشارة؟ وهو عالم أنَّهم لم يجيئوا بهذه البشارة وحدها، بدليل أنَّهم لم يبدؤوه من أوَّل الأمر، ثمَّ البشارة تحتاج إلى واحد وهؤلاء جماعة، قال: لا بدَّ أنَّ لكم شأنًا وقصدًا عظيمًا خطيرًا جئتم من أجله.

قصَّة قوم لوط:

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۞ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

قصَّة قوم لوط كرَّرها القرآن في عددٍ من السور، ذكرت قبل ذلك في سورة الأعراف: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۞ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۞ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤]،

(١) كما في الحديث الذي رواه أحمد (٥٨٥٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

وذكرت في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۞ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۞ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۞ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۞ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۞ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٧٧ ـ ٨٣]، وفي سورة الحِجْر الَّتي معنا، وستذكر بعد ذلك في عددٍ من السور.

إنَّها قصَّة غريبة، قصَّة قوم أدمنوا الفاحشة، كما قال لهم نبيُّهم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، ابتكروا هذه الفاحشة ابتكارًا، فكان عليهم وزرها ووزر من عملها من بعدهم، كما في الحديث الَّذي رواه مسلم: «**من سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّة سيِّئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[1].

إنَّهم ابتكروا هذه الفاحشة، ما حدثت هذه الفاحشة في قوم من الأقوام قبل قوم لوط، فاحشة إتيان الذكور، أو ما كانوا يُسَمُّونه في عصرنا: «الشذوذ الجنسي»، والآن لم يعودوا يسمُّونه بذلك؛ لأنَّ كلمة الشذوذ هي اسمُ ذمٍّ، وهؤلاء لا يريدون أن يذُمَّهم أحد، فأصبحوا يُسَمُّونه: «المِثْليَّة»، أي: الرجل

(١) رواه مسلم في العلم (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥٦)، عن جرير.

QaradawiBooks.com

يأتي الرجل، والمرأة تأتي المرأة، قوم لوط قاموا بهذه الفاحشة، وأصبحت معروفة بينهم، واستمرؤوا هذه الرذيلة، وتركوا نساءهم اللائي خلقهنَّ الله لهم، فجاء عن سيِّدنا لوط في سورة الشعراء: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

لقد خلق اللهُ المرأة للرجل: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، حتَّى الخِلقة الجسميَّة مهيَّأة لذلك، ولكن هؤلاء انتكسوا وارتكسوا، قلبوا فطرة الله الَّتي فطر الله النَّاس عليها، فلذلك استحقُّوا عذاب الله، ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]، فجاء هؤلاء الرسل من الملائكة لينزلوا بهم عذاب الله.

المهمَّة الَّتي أرسل اللهُ بها ملائكته لإبراهيم:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ۖ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: أُرْسِلنا لهم بالعذاب، فهم بسبب كونهم بلغوا حقيقة الإجرام يستحقُّون الإهلاك الشامل، واستثنوا لوطًا وآله، فقالوا: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ[(١)] إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ[(٢)] أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ[(٣)]

(١) الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ استثناء منقطع من قوم؛ لأنَّ القوم موصوفون بالإجرام، وآل لوط لم يجرموا.

(٢) قرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: (لَمُنْجُوهُمْ) بالتخفيف، من الفعل (أنْجى). وقرأ الباقون بالتشديد ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ من الفعل (نجَّى)، وهما لغتان عربيتان متكافئتان. انظر: التيسير للداني صـ ١٣٦، تحقيق أوتو تريزل، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ومعجم القراءات القرآنية (٥٦٩/٤).

(٣) الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾: استثناء من استثناء، وتقديره: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته.

QaradawiBooks.com

﴿قَدَّرْنَآ[1] إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: من الباقين في العذاب، ليست ممَّن كتبت لها النجاة؛ لأنَّها كانت ضدَّ زوجها سيِّدنا لوط، وكانت تُعْلِم القوم بمن يأتي إلى لوط من الضيوف، كانت نمَّامة، كلَّما جاء للوط ضيف ذهبت إلى قومها وأخبرتهم بمجيئهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهم الملائكة الَّذين كانوا عند إبراهيم عليه السلام، أتى الملائكة لوطًا عليه السلام في داره، وفي الدار زوجته وأبناؤه، ﴿قَالَ﴾ لوط لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتم مجهولون بالنسبة إليَّ لا أعرفكم، ولا أعرف من أيِّ قومٍ أنتم؟ وذلك قبل أن يكشفوا القناع عن أنفسهم، أنكرهم وما عرفهم، وقال: ما الَّذي جاء بكم إلى هذا البلد؟ من يخاطر بنفسه ويأتي بلدًا مثل هذا، فيفترسه أهلها؟ ولا يمكن أن ينجوا منهم، أمَّا سمعتم بما يفعلون؟! أنكرهم وقال ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

الوظيفة الَّتي أرسل بها الملائكة:

﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

جئناك بعذاب هؤلاء القوم، الَّذي يشكُّون في نزوله بهم، ويستبعدونه، ولا يظنُّون أنَّ نقمة الله تنتظرهم، وأنَّ الله لهم بالمرصاد، وأنَّ الله يُمْهل ولا يُهْمِل: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فأتوا بكلمة: ﴿بَلْ﴾ الَّتي تدلُّ على الإضراب ممَّا خشيه لوط من ترك نصرتهم له، أي: ما تركنا نصرتك، بل جئنا لنصرتك

(١) قرأ أبو بكر عن عاصم: (قَدَرْنا) بتخفيف الدال، وقرأ الباقون بتشديدها. انظر: النشر في القراءات العشر (٢٠٢/٢)، ومعجم القراءات القرآنية (٥٦٩/٤). وهما لغتان عربيتان بمعنى تحديد مقادير عناصر الأشياء.

QaradawiBooks.com

بالعذاب الَّذي كنتَ تتوعَّد قومَك به، وكانوا يشكُّون فيه، ويُكَذِّبونك من أجله، ثمَّ أكَّد الملائكة كلامهم قائلين:

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ أي: بالعذاب المتيقَّن الثابت الَّذي لا شكَّ فيه، المقرَّر لهم من الله ﷻ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾، فيما نقوله[1].

أمر الملائكة لوطًا بالمسير بأهله ليلًا:

﴿ فَأَسْرِ[2] بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾

ثم أمرت الملائكة لوطًا عليه السلام بعد أن هدَّؤوا قلقه، وسكَّنوا خوفه، بأوامر أربعة:

الأمر الأوَّل: أن يترك هذا البلد الظالم أهله، ويهاجر مع المؤمنين من أهل بيته لينجوا من العذاب الَّذي سينزل بهم، فقال تعالى: ﴿بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ في جزء من الليل كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]. والإسراء: هو السير بالليل، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: ١]، فقال له: أسر بأهلك في جزء من الليل، بعد منتصف الليل، اخرج من هذا البلد، من هذه القرية الَّتي تعمل الخبائث.

---

(١) وتأكيدًا لصدقهم بادروا إلى نُصرته، فطمسوا أعين قومه، وأخذوا على أبصارهم، فانصرف قوم لوط وهم لا يبصرون شيئًا، يتلمَّسون طريقهم بأيديهم، وهم يقولون: إنَّ لوطًا يؤوي في بيته أسحر أهل الأرض، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ۞ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۞ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ٣٦ ـ ٣٩].

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر: (فاسْرِ)، من الفعل: (سرى) الثلاثي. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿ فَأَسْرِ﴾ من الفعل: (أسْرى) الرباعي. وهما لغتان عربيتان. انظر: المبسوط في القراءات العشر صـ ٢٤١.

QaradawiBooks.com

الأمر الثاني: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾، أي: امشِ خلفهم لكي ترى أنَّه لم يتخلَّف أحد[١].

وتلك كانت سُنَّة النبي محمَّد ﷺ، فقد كان يمشي خلف الجيش، يحمل المنقطع، ويرى حاجة العاجز[٢]، فقال: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾: كنْ خلفَهم حتَّى تطمئنَّ أنَّهم كلَّهم صاروا أمامك.

الأمر الثالث: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: لا تنظر إلى الخلف، دع القوم وما ينزل بهم من عذاب، حتَّى حينما تسمعون الصيحة أو الصاعقة لا تنظر إلى ما يحيق بهم، ولا علاقة لكم بهؤلاء[٣].

الأمر الرابع: ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾[٤]: إلى المكان الَّذي تؤمرون به، إلى القرية الَّتي ستذهبون إليها، الَّتي ليس فيها عمل السيِّئات.

القضاء المبرم باستئصال قوم لوطٍ في الصباح:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[٥]

قضينا إلى لوط ذلك الحكم الَّذي قضاه الله إليه، وأوحاه إليه مبتوتًا

(١) وصَّى الملائكة لوطًا عليه السلام بأن يكون في مؤخَّرة أهله ليجمعهم، وليطَّلع على أحوالهم، وهكذا ينبغي أن يكون حال أمير القوم أو الجماعة في حال الانسحاب من مكان الخطر، يسير في آخرهم، ويقدِّم نجاتهم على نجاة نفسه، ويحمي ضعيفهم، ويحمل المنقطع منهم.

(٢) إشارة إلى حديث: كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيفَ، ويُردِف ويدعو لهم. رواه أبو داود (٢٦٣٩)، والحاكم (١١٥/٢) وصحَّحه ووافقه الذهبي، كلاهما في الجهاد، وحسن إسناده النووي في رياض الصالحين صـ ٩٧١، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢١٢٠)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) أو لا يلتفت منكم أحد متحسِّرًا على مفارقة الوطن.

(٤) الفعل في: ﴿تُؤْمَرُونَ﴾ بصيغة المضارع يدلُّ على أنَّ آمرًا سَيُوجِّه لهم الأمر بالسير في الطرقات، وإلى الجهات الَّتي يعينها لهم آنًا فآنًا.

(٥) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: ذلك الأمر الجليل العظيم الهائل الخطير. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مفعول به لفعل (قضينا). =

QaradawiBooks.com

مقضيًّا لا رجعة فيه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾[١]، حقَّت عليهم كلمات الله: أنَّه في الصباح سيقطع دابرهم، آخر من يبقى منهم على قَيْدِ الحياة، وإن انقطع آخرهم، فقد انقطع أولهم، فالمعنى: فقطع القوم جميعهم، من أوَّلهم إلى آخر واحدٍ فيهم، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

قضينا إلى لوط ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ سيُقطع دابرهم حينما يصبح الصباح وتشرق الشمس، ينزل عذاب الله بهؤلاء، يستقبلون عذاب الله، النَّاس تستقبل الصباح بالخير والبركة، وهؤلاء يستقبلهم العذاب، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود: ٨١]، ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ أي: في ساعة الصباح والإشراق.

استبشار أهل المدينة بضيوف لوط:

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾

وهم أهل مدينة سدوم[٢]، وهم قوم لوط، لما أُخْبِروا أنَّ في بيت لوط رجالًا مُرْدًا حسانًا وهم الملائكة، غمرهم الفرح والسرور.

= ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ بدل من ﴿ذَٰلِكَ﴾، أو عطف بيان. وجاء في العبارة استعمال اسم الإشارة الموضوع للبعيد، للدلالة على أنَّ الأمر العظيم الفظيع الذي كان مستبعدًا جدًّا، وقد تمَّ به القضاء الرباني، وصار حقيقة وشيكة الوقوع. معارج التفكير (٧٢/١١)، نشر دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

(١) هذه العبارة بدل من ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ لتفسيره ورفع إيهامه الذي جاء بأسلوب فيه تهويل وتعظيم. وهو بدلُ كلٍّ من كل. ودابر الشيء: آخره. ﴿مَقۡطُوعٞ﴾ بالإهلاك وعن البقاء في الحياة الدنيا. وأصل القطع: البتر لفصل الشيء عما هو موصول به، فقطع الحيّ عن الحياة يكون بإماتته وإهلاكه، وقطع الأبنية والقرى يكون بتدميرها وإزالة كل أثر لها، وقطع الشيء عن الوجود يكون بإعدامه. ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ أي: حالة كونهم داخلين في وقت الصبح أوَّل النهار.

(٢) والمراد بأهل المدينة: كبراؤها وأصحاب الأمر المطاع فيها، ومعهم أتباعهم وأنصارهم.

QaradawiBooks.com

﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾[١] الواو هنا لا تفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا[٢]، جاؤوا طمعًا في نيل شهوتهم من الضيوف، جاؤوا فرحين، بالغنيمة الجديدة، بالصيد الَّذي أقبل عليهم.

تصدِّي لوطٍ لقومه ودفاعه عن ضيوفه:

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۞ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾

قال لوط عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾، أي: ضيوفي، وحقٌّ على الرجل أن يُكْرم ضيفه. أي: يا قومي، هؤلاء النَّاس ضيوف عليَّ، نازلون في ضيافتي وحمايتي فلا تفضحوني[٣].

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾[٤]

يريد أن يذكِّرهم بالله، يُذَكِّرهم بالتَّقوى، يذكرهم بمكارم الأخلاق، ضيف على البلد، وعلى سيد البلد لوط، فيأتي القوم يريدون أن يفترسوهم.

---

(١) أي: يتجدَّد لهم الفرح والسرور، ويبشِّر بعضهم بعضًا بهذه الغنيمة السهلة. فاستعمل لفظ: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ في معنيين. يقال لغة: (استبشر) أي: فرِح وسُرَّ، ويقال: استبشر فلانٌ فلانًا، أي: بشره بما يُفرحه ويسرُّه.

(٢) بعد أن استبقت الآيات الحوادث، وبادرت إلى كشف حقيقة ضيف لوط والمهمة الَّتي جاؤوا من أجلها، عادت إلى الوراء لتبيِّن شذوذ قوم لوط، وما فعلوا حين سمعوا بقدوم ضيف لوط عليه السلام.

(٣) أي: لا تفعلوا ما يلزمني العار منه في حقِّ ضيفي، فإيذاؤهم إيذاء لي، وخزي وعار، وأنتم جديرون أن تحفظوا جواري.

(٤) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: تجنَّبوا عصيانه والزموا طاعته، ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾: لا تذلوني بظلم ضيوفي، لأنَّ من أُهين ضيفه فقد أُهين هو.

QaradawiBooks.com

تسعُّر شهوة الشذوذ عند قوم لوط:

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]

قبل هذا نهيناك، وقلنا: لا تستضف أحدًا يمرُّ بهذا البلد، كلُّ من يمر بهذا البلد هو حقٌّ لنا، ومتاع لنا، لماذا تستضيفهم وتحميهم عندك؟

سوَّل لهم الفساد والشذوذ والهوى الجامح أن يلقوا تبعة فجورهم مع الضيوف على نبيِّ الله لوط!

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾

ذكَّرهم بالطريق الفطري الَّذي أحلَّه الله لقضاء الشهوة المتَّقِدة في نفوسهم: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١] ما آمركم به، تزوَّجوا من بناتي كما هي الفطرة الطبيعية، كما هي طبيعة الخلق، وكما هي شريعة الخالق.

وفي سورة هود يقول: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ [هود: ٧٨].

ما المراد ببنات لوط؟

هل يريد بناته من صلبه؟ أم يريد بنات أهل البلد؟ فجميعهنَّ يُعتبرن بناته؛ لأنَّه يعتبر بمثابة الأب لهم، وتعتبر البنات كلهن بناته، هذا محتمل، وهذا محتمل.

وهو يقصد أن يتزوَّجوا من النساء، ونسب البنات إلى نفسه لعلَّهم يستحون، كما يقول أحدنا للغضبان: يا أخي اضربني أنا، خد حقَّك مِنِّي،

(١) الاستفهام إنكاري توبيخي.

QaradawiBooks.com

فيمكن أن يستحيوا أو يخجلوا، ولكن من هم؟ هؤلاء قوم لا تؤثِّر فيهم موعظة، يخاطبهم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: هل هم يعرفون الله حتَّى يتَّقوه؟ إنَّ هؤلاء أصبحوا عبيد الشهوة، وأصبحت الغريزة تستعبدهم وتُسَخِّرهم، وليتهم سَخَّروها في منفذ طبيعي كما يفعل النَّاس الأسوياء، وذلك بالزواج من الحرائر، ولكن هكذا مشوا في هذا الطريق المعوجِّ[١].

أقسم الله تعالى بحياة رسوله:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٢]

﴿لَعَمْرُكَ﴾: قَسَم بالعمر، بالحياة، هل هذا خطاب للنبيِّ ﷺ؟ الأكثرون على أنَّه خطاب للنبي ﷺ.

معنى هذا: أنَّ الله حلف بحياة محمَّد ﷺ، وهذا لونٌ من التشريف والتكريم لم يظفر به نبيٌّ غير محمَّد ﷺ: أن يُقْسِمَ اللهُ بحياته[٣].

وبعض المُفَسِّرين يقول: هذا خطاب من الملائكة للوط عليه السلام، قالوا له: لعمرك، ماذا تقول لهم؟ هؤلاء لا يلتفتون إلى الزواج بالبنات ولا بالنساء، هؤلاء انتكست فطرتهم.

---

(١) لقد أعرضوا عن عرضه، وقالوا له ما جاء بيانه في سورة هود: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩].

(٢) ﴿لَعَمْرُكَ﴾: (العمر) بفتح العين أو ضمها هو الحياة، وإذا حلفوا به التزموا الفتح، فالمعنى: وحياتك. ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ والسَّكرة: المرَّة من السُّكر، وهو غيبوبة العقل بسبب الشراب المسكر، أو الغضب أو الشهوة العارمة الطاغية الَّتي حجبت عقولهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتحيَّرون ويترددون من طمس البصائر. والعمه في البصيرة كالعمى في البصر.

(٣) روى الطبري في تفسيره (٤٤/١٤)، والحارث بن أبي أسامة في مسنده (٩٧٤)، عن ابن عبَّاس: ما خلق الله تعالى خلقًا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما أقسم بحياة أحدٍ إلا بحياته، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾.

QaradawiBooks.com

مصيبة إدمان المعصية:

﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

فما استطاعوا تمييز الخطأ من الصواب، يشير إلى مصيبة الإدمان.

الإنسان حينما يدمن شيئًا ويداوم عليه، يفقد عقله، يفقد رشده، يفقد إرادته، يفقد إنسانيَّته، فهؤلاء فقدوا إنسانيَّتهم، فأصبحوا كالأنعام، بل هم أضلُّ من الأنعام سبيلًا، فالبهائم لا تفعل ما يفعل هؤلاء، لا نجد ثورًا يطأ ثورًا، ولا كلبًا يطأ كلبًا. لا، ثمَّ لا، الكلب لا يطأ إلَّا كلبة، والثور لا يطأ إلَّا بقرة، لكن هؤلاء أصبحوا كالبهائم، بل أضلُّ من الأنعام سبيلًا.

ثلاث عقوبات نزلت بقوم لوط:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۞ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾

الله تعالى أهلك الأمم المكذِّبة للأنبياء والمرسلين، كلُّ أُمَّة بنوعٍ من أنواع العذاب، أمَّا قوم لوط فقد أهلكهم الله ﷻ بثلاثة أنواع من العذاب، كلُّ واحدة منها تكفي لاستئصالهم وإهلاكهم جميعًا:

العقوبة الأولى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ أي: نزلت بهم وأهلكتهم جميعًا ﴿الصَّيْحَةُ﴾: صيحة جبريل بهم، وهي صرخة صوتيَّة عظيمة تزلزل وتدمِّر، ﴿مُشْرِقِينَ﴾ عند شروق الشمس؛ لأنَّ ابتداء عذابهم كان عند طلوع الفجر، وآخره عند طلوع الشمس.

QaradawiBooks.com

العقوبة الثانية: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾[١]:

صحب هذه الصيحة، وهذا الصوت الشديد الهائل القاصف، شيء آخر وعقوبة ثانية، وهي: أنَّ جبريل قلع الأرض بهم، ورفعها إلى السماء، ثمَّ أهوى بها مقلوبةً نحو الأسفل، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤]، جعل الله عاليَها سافلَها، وسافلَها عاليَها[٢]، وقلب بلادهم.

قلبوا الفطرة، وارتكسوا وانتكسوا، فعوقبوا بمثل عملهم، والجزاء من جنس العمل، قلب الله عليهم قريتهم، وجعل عاليَها سافلَها.

العقوبة الثالثة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾:

وزاد على ذلك، شيئًا آخر، وعقوبة ثالثة، وهي: المطر المتتابع بحجارة من طين محترق مستحجر، أُحْمِيَ عليه حتَّى أصبح سجِّيلًا: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

في هذه السورة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، وفي سورة هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، كل حجر مُعَلَّم بعلامة خاصَّة ذاهب إلى صاحبه، فأهلكهم الله جميعًا، حاضرهم وغائبهم؛ إذ تتبعتهم الحجارة ففرقتهم وأهلكتهم، وطهَّرت الأرض من فسقهم ورجسهم.

فعوقبوا بهذه العقوبات الثلاث جزاء ما عملوا، ويمكن أن يكون ما وقع لهم بظاهرة كونيَّة، مثل البركان حين ينفجر، لعلَّه بركان بما

---

(١) الفاء عاطفة للترتيب والتعقيب والسببيَّة. ويتحدث الربُّ سبحانه في قوله: ﴿فَجَعَلْنَا﴾، ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ بضمير المتكلم العظيم لإرهاب الكافرين المعاندين المتمادين في غيِّهم، جلَّ جلاله، وعظم سلطانه.

(٢) حُذف هذا اكتفاءً بدلالة ما قبله عليه.

QaradawiBooks.com

يحمل من معادن وغـازات، أو نحوها، فأهلكهـم الله ﷻ. والأولى أن نُفسّـر على ظاهر ما في القرآن، حين قال: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤].

أهلك هذه القرية الَّتي كانـت تعمل الخبائث، كمـا قال القرآن: ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبيـاء: ٧٤]، قرية اسـمها سـدوم وعاموراء، كما جاء في التـوراة، قلبت هـذه القرية وانتهت، قُطِـع دابرُ أهلهـا تمامًا، عقوبـة من الله لهـذا الأمر الَّذي استحدثوه من دون العالمين.

أوصاف قوم لوط عليه السلام في القرآن:

القرآن وصف قوم لوط بأسـوأ ما يوصف به البشر على لسان سيِّدنا لـوط عليه السلام، قـال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨١]، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]. ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

وصفهم بالإسراف والجهل والاعتداء والإفسـاد، وذمَّ القرية ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، هذا الأمر جعلهم يقطعون السبيل، اشـتغلوا قُطَّاع طريق، لا ليستولوا على الأموال، ولكن ليأخذوا الرجال والشـباب، وليعملوا هـذه الخبائث، والـذي أغراهم بالملائكة: أنَّهم جاؤوا في صورة شـباب حسـان الوجوه، فزادهم هذا إصرارًا على الشـر، فمن أجل ذلك عاقبهم الله على إجرامهم وإفسادهم وفسوقهم وجهلهم وإسرافهم بهذه العقوبة الشديدة.

QaradawiBooks.com

تقنين الشذوذ الجنسي في عصرنا:

وفي عصرنا ـ للأسف الشديد ـ قامت الحضارة الغربيَّة الحديثة، الَّتي يُسمِّيها بعضهم الحضارة الكونيَّة، الحضارة الَّتي تسود الكون، وتسود العالم، جاءت هذه الحضارة لتُعيد من جديد عادة قومِ لوط.

قوم لوط جاؤوا بأن يستغني الذكور بالذكور، فلم تكتفِ بهذه الحضارة الحديثة، بل جاءت باستغناء الإناث بالإناث، زادوا الطينَ بِلَّة، والداء عِلَّة، ثمَّ جعلوا هذا أمرًا مقنَّنًا.

كان قوم لوط أهل قرية من القرى، مهما فعلوا لن يؤثِّر ذلك في العالم، ولكنَّ الحضارة الغربيَّة حضارة ممتدَّة واسعة، تؤثِّر في أمريكا، وتؤثِّر في أوربا، وتؤثر في أستراليا، وتؤثر في بلاد كثيرة في العالم في آسيا وإفريقيا، جاءت بهذا الشذوذ الجنسي، بل كما ذكرت من قبل لم يعودوا الآن يسمُّونه شذوذًا، بل يسمُّونه مِثْليَّة، وسمَّوا هؤلاء الشاذِّين بالمثليِّين، أي: يستغني الإنسان بمثله، الرجل يستغني بالرجل، والمرأة تستغني بالمرأة، وسنُّوا قوانين تبيح هذا الأمر وتُقِرُّه وتعتبره أمرًا مباحًا، بل حريةً شخصية وحقًّا من حقوق الإنسان!!

وللأسف أقرَّت هذا أيضًا بعض الكنائس النصرانيَّة، ووجد في أوربا وأمريكا بعض القساوسة الَّذين يعلنون في الصحف أو يعلنون في التلفزيونات: القس فلان الفلان يعقد عقود الزواج المثليَّة!! يذهب القسيس يبارك هذا الزواج المثلي! انظروا ماذا حدث في هذه الحضارة الغربيَّة، وأصبح هؤلاء الشواذ لهم سلطان، وصاروا من الجماعات الضاغطة على السياسيِّين، ولهم في الانتخابات تأثير في نفوس الرؤساء في أمريكا وفي غيرها من البلدان الكبيرة، فيخطبون وُدَّ هؤلاء المثليِّين؛

QaradawiBooks.com

لأنَّهم أعداد كبيرة، فمن كان في صفِّه أعداد مثل هؤلاء، ربَّما يكون هو الناجح في الانتخابات، هذا ما حصل في الحضارة الغربيَّة الَّتي يتباهى بها المتباهون، ويفخر بها المتفاخرون.

حملة مغرضة:

ومنذ نحو سبع سنوات[1] كنتُ في مدينة لندن، أرأس اجتماع «المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث»، وكذلك الاجتماع الأول للجمعيَّة التأسيسية الأولى «للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين»، فقامت عليَّ حملة ضخمة كبيرة، تولَّتها الصحف والإذاعة والتلفزيون بقنواتها المختلفة، وأدواتها الهائلة، كانت هذه الحملة من أجل أَمْرين أساسيَّين:

أمر يتعلَّق بالقضيَّة الفلسطينيَّة، وهو أنِّي أقول بإباحة العمليات الاستشهاديَّة التي يقوم بها الفلسطينيُّون، الَّذين يُذبحون ويُشَرَّدون وتغتصب أرضهم وتقتلع زراعاتهم وأشجارهم، ويُفعل بهم ما يُفعل، فمن حقِّهم أن يدافعوا عن أنفسهم ولو بالعمليَّات الاستشهاديَّة.

والأمر الآخر هو أنَّني أقف موقفًا عدوانيًّا من الشواذِّ، وقد سألني مندوب التلفزيون البريطاني في أحد برامجه الشهيرة: إنَّكَ تقف موقفًا عدوانيًّا من هؤلاء الشواذِّ أو المثليِّين وهم يمارسون حقَّهم! أصبح هذا من حقوق الإنسان، يمارسون حقَّهم في الاستمتاع، ما لكم تقفون ضدَّ هؤلاء؟!

موقفي من الشواذِّ جنسيًّا:

وقلت لمندوب التلفزيون الَّذي سألني: إنَّني لستُ وحدي الَّذي أقف من هؤلاء هذا الموقف؟ إنَّ هذا موقف الأديان الكتابيَّة الكبرى، موقف

(١) في سنة ٢٠٠٤م.

QaradawiBooks.com

اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام، موقف التوراة والإنجيل والقرآن، موقف حاخامات اليهود وآباء النصارى وعلماء الإســلام، بل موقف كلِّ فلسفة أخلاقيَّة سويَّة. ولو أنَّ النَّاس استجابوا لهذه النزعة الشهوانيَّة لانقرضت البشريَّة بعد جيل أو جيلين؛ لأنَّ البشريَّة لكي تبقى لا بدَّ أن يظلَّ الزواج الفطري الطبيعي الشــرعي، الَّذي يرتبط فيه الذكر بالأنثى، أو ترتبط فيه المرأة بالرجل، هذا هو الَّذي يمكن أن ينجب أولادًا (أبناء وبنات)، لكنْ حينَ يكتفي الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، ستفنى البشريَّة، لو استجاب النَّاس لهذه النزعة سيفنون لا محالة.

فللأسف كيف رأينا البشــريَّة قد ضلَّت الطريق، وكيف تلوَّث سلوك النَّاس، وكيف بعدت هذه الحضارة عن منهج الأنبياء، عن منهج رســل الله عليهم السلام. وقد ذكرت كتب الســماء التوراة والإنجيل عمَّا أصاب سدوم وعاموراء ـ قرية لوط وقوم لوط ـ مــن عذاب الله عزَّ وجلَّ، ولكن هؤلاء في وادٍ، وكتب السماء في وادٍ آخر، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٣، ٧٤]، عند وقت الشُّروق أصابهم ما أصابهم.

آياتٌ وعبر للمعتبرين:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(١)

في هذه القصَّة آيات وعبر، للمتوسِّمين: أي: المتفرِّسين، المتوسم هو الَّذي يعرف بالســمة، كما ورد: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنَّه ينظر بنور الله**»،

(١) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي في قصَّة إبراهيم ولوط، ﴿لَآيَٰتٍ﴾: دلالات على وحدانيَّة الله وقدرته وتفرُّده بالصفات الجليلــة ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للناظرين المعتبرين المتأمِّلين المتَّعظين بما يعلمون ويتدبَّرون من الأحداث والحقائق.

QaradawiBooks.com

ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1]، وبعضهم قال: المتوسِّمين أي: المعتبرين، وبعضهم قال: الناظرين، وبعضهم قال: المتفكِّرين، كلها في معنى واحد متقارب، فالمتوسِّمون الَّذين لهم عقول يعتبرون بها، لا تمرُّ عليهم هذه القصص وهم غافلون عنها.

لماذا قصَّ الله علينا القصص؟ للتسلية؟ لا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، في هذه القصص عبرة لمن يعتبر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.

مكان قرية (سدوم):

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾

القرية الَّتي أصابها عذاب الله ﷻ في طريق واضح سهل ميسَّر للجميع لم يندثر، لا زال ثابتًا باقيًا، ولا زال ظاهرًا، كما قال الله في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، هذه القرى وأنتم ذاهبون إلى الشام من المدينة ـ في المملكة الأردنيَّة حاليًا ـ تمرُّون عليها في الطريق، انظروا واعتبروا يا أولي الأبصار: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

هذه هي قصَّة لوط وقومه، الَّذين سخروا من لوط، وقالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، أصبح لوط هو المذنب،

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣١٢٧) وقال: حديث غريب. والطبراني في الأوسط (٧٨٤٣)، قال الهيثمي في المجمع (١٧٩٤٠): رواه الطبراني، وإسناده حسن. وضعفه الألباني في الجامع الصغير (١١٤٠)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

هو المتهم، وجريمته أنَّه يتطهَّر، الطهارة أصبحت تهمة في هذا المجتمع، وللأسف أصبح مجتمع قوم لوط كلُّه تقريبًا على هذا الحال إلَّا بيت لوط، كما قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦].

هلاك امرأة لوط مع قومها:

حتى امرأة لوط، لم تُفلت من هذا العذاب والعياذ بالله، وهذا من أقدار الله، أن ترى المرأة الكافرة تحت رجل مؤمن، وترى المرأة المؤمنة تحت رجل كافر: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۞ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١٠، ١١].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]

إنَّها آية للمتوسمين وآية للمؤمنين. هذا تأكيد على أنَّ في هذه القصَّة عبرة، وأنَّ فيها تبصرة، وأنَّ فيها تذكرة، فيها آية للمؤمنين الَّذين صدقوا الله والأنبياء والرسل، كما أنَّها آيات للمتوسمين، هذا توثيق وتأكيد للآية السابقة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

---

(١) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: ما صارت عليه ديار قوم لوط: ﴿لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: آية من آيات الله الجزائيَّة العقابيَّة، وهي دالة على سنة من سنن الله في عباده المجرمين. وهذه الآية ينتفع بدلالتها الذين لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا. ويلاحظ أنَّ الآيات: [٧٥ ـ ٧٧] مؤكَّدات بـ(إنَّ، والجملة الاسمية، واللام) لأنَّ معظم المخاطبين يغفلون عن التبصُّر بحقائق هذه الآيات، فهم بحاجة إلى التوكيد المشدَّد، لتحريض أفكارهم على دقَّة التأمُّل وحُسْن التدبُّر.

(٢) قال العلامة الخطيب الإسكافي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال في الآية الَّتي بعدها: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۞ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. للسائل أن يسأل عن جَمْع =

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

= «الآيات» أولًا، وتوحيدها آخرًا فيقول: لم اختُصَّت الأولى بـ «الآيات» والثانية بـ «الآية» على التوحيد، وهل كانت «الآيات» لو ذُكرت في الثانية، و«الآية» لو ذكرت في الأولى، فما يكون في اختيار الكلام؟

والجواب أن يقال: ذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى ما قُصَّ من حديث لوط وضيف إبراهيم، وتعرُّض قومه لهم طمعًا فيهم، ومــا كان من أمرهم آخرًا من إهلاك الكفار وقلب المدينة على من فيها وإمطار الحجارة على من غاب عنها، وهذه أشياء كثيرة، في كل واحدة منها آية، وفي جميعها آيات لمن يتوسم، أي يتدبَّر السمة، وهي ما وسم الله تعالى به العاصين من عباده، ليستدلوا بها على حال من عَنَدَ عن عبادته فيتجنبها، فكان ذكر الآيات هاهنا أولى وأشــبه بالمعنى، وأمَّا قوله: ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلأنَّ قبلها: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي تلــك المدينة المقلوبة ثابتة الآثــار، مقيمة للنظار، فكأنَّها بمــرأى العيون لبقاء آثارها، وهذه واحدة من تلك الآيات، فلذلك جاء عقيبها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾» اهـ. انظر: درة التنزيل وغرة التأويل (٨١٨/٢ ـ ٨٢٠)، تحقيق د. محمد مصطفى آيدين، نشر جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

نسخة مجانية

الدرس السادس

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ۝ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ۝ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الحجر: ٧٨ ـ ٨٤].

إرسال شُعَيْب إلى أصحاب الأَيْكة:

ذكرت السورة قصَّةً أخرى بإيجاز، قصَّة أصحاب الأَيْكة: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾، إشارة سريعة إلى قصَّة أخرى، قصَّة أصحاب الأَيْكـة، والأَيْكة: هي الموضع الَّذي يكثر فيه الشجر الملتفُّ، وهؤلاء هم الَّذين أرسل إليهم شُعَيْب عليه السلام، شُعَيْب أُرسـل إلى مَدْيَنَ وهي مدينة على ساحل البحر تُحاذي تبوك، وأُرسـل إلى أصحاب الأَيْكة، ولكنَّه كان مـن مَدْيَن، ولذلك جاء في القرآن: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ [الأعراف: ٨٥]، ولكنَّه لم يكن من أصحاب الأَيْكة، ولذلك لم يقل في سورة الشعراء: «إذ قال لهم أخوهم شـعيب»، بل قال: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشـعراء: ١٧٧]، ولم يقل شـعيب لهم: «يا قوم أوفوا الكيل». بل قال: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ [الشعراء: ١٨١] من غير يا قـوم. فدلَّنا القرآن بذلك على أنَّ مـن الأخوَّة أخوَّة قوميَّة،

QaradawiBooks.com

كأخوَّة شُعَيْب لمدين. ومن هنا أجزنا أن يكون بين المسلمين والمسيحيِّين إذا كانوا من بلد واحد كمصر، أو من ثقافة واحدة وحضارة واحدة، كالمسيحيِّين العرب: أخوَّة مشتركة هي الأخوَّة الوطنيَّة أو القوميَّة.

انتقام الله من أصحاب الأَيْكة:

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۞ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

ووصف الله سبحانه أصحاب الأَيْكة بالظلم، وهم ظلموا أكثر من ظلم.

الظلم الأول: ظلم الشرك، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الظلم الثاني: ظلم النَّاس، كانوا يُطَفِّفون في المكيال والميزان، وكانوا يبخسون النَّاس أشياءهم، ويَعْثَون في الأرض مفسدين، وهدَّدوا نبيَّهم بالرجم، وقالوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، وهكذا توالى ظلمهم وتنوَّع.

كان أصحاب الأَيْكة ظالمين، فانتقم الله منهم؛ لأنَّ الظلم عاقبته وخيمة: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ عاقبناهم على ظلمهم بأن أهلكناهم بشدَّة الحرِّ[1]، ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: طريق، وإنَّما سُمِّي الطريق إمامًا؛ لأنَّ الإنسان يأتمُّ به حتَّى يبلغ الموضع الَّذي يريده ﴿مُّبِينٍ﴾: واضح ظاهر.

(١) انتقم الله من أصحاب الأيكة بعذاب الظُّلَّة المبيَّنة في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وأمَّا أهل مدين فأخذتهم الصيحة، كما في قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤].

QaradawiBooks.com

ما المراد بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾؟

هل هما أصحاب الأَيْكة ومدين الَّذين أرسل إليهما شعيب، أم هم أصحاب الأَيْكة وقوم لوط؛ لأنَّهم قريبون بعضهم من بعض في المكان وفي الزمان؟ ولذلك قال شُعَيْب حينما أنذر قومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، لعلَّ الثاني هو الأقرب.

أصحاب الحِجْر قوم صالح:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

قصَّة ثالثة يذكرها الله تعالى بعد أن نبَّأ عباده أنَّه هو الغفور الرحيم، وأنَّ عذابه هو العذاب الأليم، وهي قصَّة أصحاب الحِجْر، حِجْر ثمود قوم سيِّدنا صالح عليه السلام، وهؤلاء من العرب الَّذين يسمُّونهم العرب البائدة، الَّذين بادوا ودرست آثارهم، ولم يبق منهم شيء: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥١]، لم يبق منهم أحد، عاد وثمود من العرب البائدة.

من كذَّب نبيًّا فكأنَّما كذَّب الأنبياء جميعًا:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، هم كذَّبوا صالحًا وجحدوا ما جاء به وأنكروه، وإنَّما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأنَّ من كذَّب نبيًّا فكأنَّما كذَّب الأنبياء جميعًا؛ لأنَّ من يفتري على هذا يفتري على ذاك، ولذلك قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، مع أنَّ نوحًا هو أوَّل النبيِّين، وشيخ المرسلين، إلَّا أنَّهم لما كذَّبوا نوحًا كانوا بذلك مكذِّبين لجميع الرسل: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

QaradawiBooks.com

مكان حِجْر ثمود:

حِجْر ثمود هذا في الطريق، من خيبر إلى تبوك، ويعرف باسم «وادي القرى»، وفيها بقايا آثار «ثمود» ويطلق عليها الآن: «مدائن صالح». مرَّ عليه النبيُّ ﷺ في مسيره إلى غزوة تبوك، وحينما وصل إلى ديار القوم، غطَّى وجهه وأسرع بدابَّته.

ففي الصحيح عن سالم بن عبد الله، عن أبيه رضي الله عنهم، أنَّ النبيَّ ﷺ لما مرَّ بالحِجْر قال: «**لا تدخلوا مساكن الَّذين ظلموا أنفسهم إلَّا أن تكونوا بَاكِين؛ أنْ يصيبكم ما أصابهم**»، ثمَّ تقنَّع بردائه وهو على الرَّحْل[1].

هلاك أصحاب الحضارات القديمة:

كان قوم صالح هؤلاء، ونُسَمِّيهم الآن أصحاب حضارة، وقد ذكر الله في سورة الفجر أصحاب حضارات قديمة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۞ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۞ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَادِ ۞ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

كلُّهم أصحاب حضارات مدنيَّة، عاد قوم هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩].

وهؤلاء ثمود قوم صالح: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، يشقُّون الصخر وينحتونه، ويجعلون منه مساكن لهم، وبيوتًا لهم آمنين، مقدرين أنَّ الأمن سيستمر لهم إلى الأبد.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٨٠)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٠).

QaradawiBooks.com

فبعث الله إليهم صالحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢]، وظل سيِّدنا صالح يدعوهم إلى طاعة الله، وإلى عدم طاعة المفسدين في الأرض من الجبابرة والمسرفين، قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۞ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۞ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٤]، فآتاه الله آيةً عظيمة، هي الناقة، أخرج الله له من الصخرة ناقة: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، يعني تشربون يومًا، وتشرب الناقة في اليوم التالي، وهكذا، واليوم المخصص لشرب الناقة تشربون من لبنها.

إعراض قوم صالح عن الآيات:

﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

أعطيناهم وهيَّأنا لهم الأدلَّة القاطعة على صدق صالح، وأعظم هذه الآيات: الناقة، بل هي آية تتضمَّن آيات في الحقيقة، ومع هذا تمرَّدوا على هذه الآية الَّتي طلبوها، ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: منصرفين بأنفسهم غير متنبِّهين ولا مكترثين، وأمهلهم نبيهم صالح عليه السلام وقال لهم: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، فقام أشقاهم وعقر الناقة، ذبحها، فانتهى الإمهال لهم: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، ثمَّ جاءتهم الصيحة من السماء، والزلزلة الشديدة من الأرض: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] باركين على الركب، هالكين ميِّتين.

QaradawiBooks.com

﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾

وهذه البيوت المنحوتة في الصخر لم تُغْنِ عنهم شيئًا، حينما يجيء عذاب الله لا يحول دونه حائل، فتحصَّن ما شئت أن تتحصَّن، بالصخر، بالجبال، فابن نوح حينما جاء الطوفان قال لأبيه: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣].

هؤلاء ظنُّوا أنَّ بيوتهم المحصَّنة في الجبال تمنعهم وتحميهم إذا جاء عذاب الله، ولن تغني عنهم بيوتهم شيئًا، كما ظنَّ يهود المدينة من بعد: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

هلاك قوم صالح بالصيحة:

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾

﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: نزلت بهم وأهلكتهم الصيحة الصوتيَّة المزلزلة، وقت الصباح، كما أخذت الصيحة قوم لوط مشرقين، عند شروق الشمس، هؤلاء أخذتهم مصبحين.

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

ما عملوا، وما جمعوا، وما بنوا، وما حصنوا، وما نحتوا في الجبال، لم يغنِ عنهم حين جاء عذاب الله شيئًا، هذا شأن الله دائمًا. فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، وما كانوا يعملون.

QaradawiBooks.com

هناك قوم ذكرهم القرآن ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۞ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۞ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٣ ـ ٨٥]، حينما يأتي بأس الله لا يردُّه رادٌّ، إنَّ قضاء الله نافذ، وحكمه جارٍ على كلِّ من قضى الله ﷻ بهلاكه.

في قصصهم عبرة:

هذه هي القصص الثلاث الَّتي تضمَّنتها هذه السورة بعد قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾، فإذا ضممنا إليها قصَّة الإنسان الأول: قصَّة آدم وإبليس تكون السورة قد تضمَّنت أربع قصص، وإذا فصلنا وقلنا: قصَّة إبراهيم وقصة لوط، تكون قد تضمَّنت خمس قصص، وفيها عبرة للمؤمنين، وآية للمؤمنين، وآيات للمتوسِّمين.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدرس السابع

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۞ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۞ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۞ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۞ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۞ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٨٥ ـ ٩٩].

التسريةُ عن النبيِّ وشدٌّ أَزْره:

هذه الآيات الخمس عشرة الأخيرة من السورة تخاطب رسول الله ﷺ إيناسًا له، وشـــدًّا لأزره، وتقويةً لعضده، في مواجهة أهل الشرك، وأهل الباطل، الَّذين سخروا من دعوته، واستهزؤوا بها، وكادوا لها كيدًا.

مخاطبة الله لرسوله بكاف الخطاب في هذه الآيات عشر مرَّات:

حين يخاطب الله ﷻ رســوله ﷺ نجــد كاف الخطاب: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ

QaradawiBooks.com

إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾، ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾، ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾.

وهكذا، عشر مرَّات فيها خطاب للنبيِّ ﷺ.

أوامر ونواهٍ في عشر آيات:

وكذلك أمر ونهي حوالي عشر مرات: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾، ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾، ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾، ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾، ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾.

أوامرُ ونواهٍ كلُّها خطابٌ للنبـــيِّ ﷺ، وكلُّها وصايا وتوجيهات ربانيَّة للرسول، ولمن بعده من الدعاة، بعد أن قصَّ عليه قصص السابقين من الأمم السابقة.

والأمم حين يقصُّ القرآن قصصها لا يقصد بها التســـلية، ولا يقصد بها مجرَّد إمضاء الوقـــت، ولكن للعبرة بها: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هـــود: ١٢٠]، ومن هنا جاء الخطاب للنبيِّ ﷺ.

QaradawiBooks.com

موقف أولي الألباب من خلق السماوات:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾

بدأ هذا الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: ما خلق الله هذا الكون علويَّه وسفليَّه، السماوات العلى والأرض الَّتي جعلها الله للناس بساطًا وفراشًا ومهادًا، وما بين السماوات والأرض من مخلوقات، لم يخلق الله هذا العالم ـ هذا الكون كله ـ باطلًا، ما خلقه إلَّا بالحقِّ والحكمة والمصلحة، فالله من أسمائه: الحكيم، فلا يخلق شيئًا عبثًا ولا اعتباطًا، لا يخلق شيئًا باطلًا، ولا يشرع شيئًا عبثًا ولا اعتباطًا أيضًا.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، يقول هؤلاء أولوا الألباب، أهل الذكر والفكر، الَّذين يذكرون الله تعالى، ويتفكَّرون في خلق السماوات والأرض: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾، يستحيل أن تخلق هذا الكون باطلًا، لا بدَّ أنَّك خلقته لحكمة، عَلِمَها من عَلِمَها، وجَهِلَها من جَهِلَها.

العدل الإلٰهي مع المحسن والمسيء:

هذا الَّذي نفاه أولوا الألباب، ذكره القرآن حينما قال تعالى في سورة صٓ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [صٓ: ٢٧، ٢٨].

QaradawiBooks.com

هذا هو الباطل أن يسوِّي الله بين المحسن والمسيء، بين المؤمن والكافر، بين المتَّقي والفاجر، هذا يتنافى مع العدل، ويتنافى مع الحكمة، هذا هو الباطل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، الَّذين كفروا ظنُّوا أنَّ سُوق هذه الحياة ستنفض، وقد ظلم فيها الظالم، وقتل فيها القاتل، وسرق فيها السارق، وطغى فيها الطاغية، وارتكبت فيها القبائح، فلم تطل هؤلاء يد القانون، فهم حراس القانون (حاميها حراميها)، هم الَّذين كانوا من المفترض أن يُعاقبوا المجرمين، فما بالنا إذا كانوا هم أعتى المجرمين، فمن يعاقبهم؟

من يعاقب فرعون وهامان وقارون؟ من يعاقب نمروذ وأبا جهل والمتمرِّدين في الأرض؟ من يعاقب الأشرار والفجار الَّذين يملكون القوة ويملكون الثروة ويملكون السلطة؟ إذا كانت الحياة ستنفضُّ، وقد عاش هؤلاء متمتِّعين بالأموال، متمتِّعين بالسلطان، آكلين لحقوق غيرهم، دائسين على الضعفاء بأقدامهم، ولم ينالوا عقوبتهم، تكون هذه الحياة باطلة. إذا خرج الظالم والطاغية من هذه الحياة ولم ينل عقوبته اللائقة بمثله، فأين العدل؟

هناك أناس لم تنلهم يد القانون في الدنيا. يقول بعض رجال القانون: القانون حمار؛ لأنَّ كثيرًا من النَّاس يمكرون على القانون ويغلبونه، عندهم حيل للخروج من القانون، في أمريكا يوجد من يؤلِّف كتبًا للتحايل على القانون، فماذا يفعل القانون مع هؤلاء؟ فكما قلنا: الَّذين في أيديهم تطبيق القانون يخونون القانون، إذا كان الظالم سيخرج من الحياة دون أن ينال عقوبة ظلمه، والأخيار الَّذين عاشوا طوال حياتهم لحراسة الحقِّ، وخدمة الخير، ومنفعة الغير، وعمل الصالحات، واستباق الخيرات، ثمَّ لم ينالوا

QaradawiBooks.com

جزاءهم، بعضهم قُتِل، وربَّما يقول بعض الناس: نالوا جزاءهم. براحة ضمير وهدوء نفْس وطِيب حياة، لا، بل قتلوهم في شبابهم، لم ينل المقتول المظلوم جزاء ما عمل من صالحات وما قدَّم من خيرات.

إذا انتهت الحياة على ذلك فهي باطلة؛ لأنَّ الإنسان لم ينل جزاءه ثوابًا أو عقابًا، لهذا أكَّد القرآن على أنَّ الله يبعث من في القبور، ويقيم لهم محاكمة ظاهرة عادلة، ويجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، فلا يقبل أن تنتهي هذه الحياة ولا تكون هناك حياة أخرى، هذا باطل، الحقُّ أنَّ الله خلق هذه الحياة لتكون مزرعةً لحياة أخرى، نحن نزرع هنا لنحصد هناك، اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل، فلا بدَّ أن تكون هناك حياة أخرى توفَّى فيها كلُّ نفس ما كسبت، وتخلد فيما عملت، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، كلُّ إنسانٍ سيرى جزاءه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]، يرى عمله بعينه: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

لهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وكما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١]، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

هذا هو الحقُّ أن تُجزى كلُّ نفس بما كسبت، لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، لا العمل الصالح يضيع، ولا العمل السيِّئ يضيع، هذا

QaradawiBooks.com

يجزى حسنات ومثوبة، وهذا يجزى على السيئات سيئات وعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٤٠]، هذا هو الحقُّ الَّذي قامت به السماوات والأرض.

التأكيد على قرب الساعة:

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾

الساعة الَّتي يُجزى فيها المسيء بإساءته، والمحسن بإحسانه، وتُوَفَّى كلُّ نفسٍ فيها ما كسبت، الساعة آتية، بهذا التأكيد ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾، «إنَّ» حرف توكيد للجملة الاسميَّة، واللام في الخبر تأكيد على تأكيد، يؤكد أنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ يوم القيامة بالبعث والحساب والجزاء ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾ واقعة وحاصلة، وفيها يكون الحساب وفصل القضاء، وكلُّ آتٍ قريب.

الصفح الجميل:

﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾

الصفح الجميل: هو الحَسَن اللطيف، دون عتاب أو انتقام، أي: تعاملْ مع النَّاس بالخُلُق الحسن، ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾، هكذا أمره الله ﷻ أن يصفح عمَّن آذاه وظلمه، بترك عقابه ولومه، وهو أبلغ من مجرَّد العفْو، ويؤكِّده قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف: ٨٩].

القرآن أمر بالصفح الجميل، والصبر الجميل: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، والهجر الجميل: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

QaradawiBooks.com

والصفح الجميل: الَّذي لا تشديد في العتاب معه. والصبر الجميل: الَّذي لا شكوى معه. والهجر الجميل: الَّذي لا إيذاء معه. هكذا أمر الله ﷻ رسوله: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ فهو ﷻ يأمر رسوله بكلِّ معنًى جميل.

القرآن يحثُّ على تذوُّق الجمال الحسي والمعنوي:

القرآن يحثُّنا على تذوُّق الجمال في كل شيء، الجمال الحسي، كما ذكر سبحانه في معرض امتنانه بالأنعام في سورة النحل: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]، حينما ترجعون بالأنعام بالإبل والبقر والغنم وهي ممتلئة البطون عند الرَّوَاح، وحين تَسْرحون بها، منظر جميل، لوحة فنية رائعة، لو رسمها فنان لقلنا: ما أجملها! كيف وأنت تراها في الطبيعة، خلقتها يد الله، الَّتي أحسنت كلَّ شيءٍ خلقه، وأبدعت كلَّ شيء صنعه، الجمال الحسي، والجمال المعنوي في الأخلاق[١].

دعوى نسخ آية الصفح الجميل بآية السيف:

بعض المفسِّرين قالوا: هذه الآية كانت قبل آية السيف. آية السيف جاءت فقطعت رقاب مائة وأربعين آية أو مائتي آية من القرآن الكريم! ولكن المفسِّرين المحقِّقين قالوا: هذا لا يُنسخ؛ هذا أمر بحُسْن الخُلُق، وحُسْن الخُلُق هذا لا يمكن أن يُنْسخ، إنَّما بُعِثَ النبيُّ ﷺ ليتمِّم مكارم الأخلاق[٢]، كيف تنسخ مكارم الأخلاق؟ وقد جاء في القرآن المدني:

---

(١) والجمال في هذا الصفح يكون بإبقاء الوجه طلقًا سمحًا لا تظهر عليه علامات الغضب أو الغيظ والكراهية، وبإبقاء الكلام عاديًّا لا تظهر فيه أمارات الاضطراب، ويكون أيضًا بعدم شَغْل القلب برغبات الانتقام.

(٢) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والحاكم =

QaradawiBooks.com

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، والقرآن المكي: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩].

قال الفخر الرازي: «وقيل: هو منسوخ بآية السيف، وهو بعيد؛ لأنَّ المقصود من ذلك أن يُظهِر الخُلُقَ الحسنَ والعفو والصفْح، فكيف يصير منسوخًا؟!»[(١)]. فهذا ليس بمنسوخ.

إيناس الله لرسوله وتسليته:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾

كلمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: فيها نوع من الإيناس، لم يقل: «إنَّ الله هو الخلاق العليم»، ولكن قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فاستوثق أنَّه معك؛ لأنَّه ربُّك، ليس غريبًا عنك، ولا بعيدًا منك، فهو يُرَبِّيك ويرعاك، وهو يُدبِّر أمرك، فلا تحزن ممَّا يقابلك به المشركون؛ لأنَّ الله مُقدِّرُه وعالمٌ به، وسينالون جزاءه.

قدرة الله على الخلق:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(٢)] الموجد لما يشاء من العدم، الخالق لجميع المخلوقات على الإطلاق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾[(٣)] المحيط بخفايا الأمور

= في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢) وقال: على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

(١) تفسير الرازي (١٥٨/١٩).

(٢) الخلاق وزنه: فعَّال، مبالغة من اسم الفاعل من مصدر: خَلَق. أي: هو خالقٌ كلَّ ذات وكلَّ حدث.

(٣) العليم: صيغة مبالغة من اسم الفاعل (عالم) من العلم، وفي هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قَصْر صفتي الخلاق العليم على الله تبارك وتعالى.

QaradawiBooks.com

ودقائقها، وذلك لأنَّه خلَّاق عليم، فهو قادر على أن يحيي الموتى[1]، وأن يعيد النَّاس مرَّة أخرى، كما قال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۞ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۞ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ۞ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨١].

فالخلَّاق العليم هو القادر على الخلْق، الخلَّاق يخلق في كلِّ لحظة الملايين والبلايين والتريليونات والدشليونات من الخلْق، في كلِّ لحظة يخلق من بني آدم، ويخلق من الحيوانات، ويخلق من الزواحف، ويخلق من الطيور والحشرات، ويخلق من الأحياء المائيَّة، يخلق ممَّا نعلم وممَّا لا نعلم ما يشاء سبحانه.

فصائل المخلوقات:

لو نظرت إلى فصائل المخلوقات لوجدت شيئًا عجيبًا، ليست بالملايين، لا، بل بالمليارات وأكثر، ومنذ فترة قريبة ذكروا أنَّ متحفًا في بريطانيا يُخزِّن بذور النباتات الموجودة في العالم؛ لأنَّ بعضها يمكن أن ينقرض في وقت من الأوقات، فوضعوا البذرة الأخيرة، وكان ترتيبها في العدد المليار، وما زالوا يجمعون، فانظروا إلى أنواع النباتات الَّتي في دنيانا كم وصل عددها؟

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، هذا كله من خلق الله ﷻ: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [لقمان: ١١]، ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، الله هو الخلَّاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

---

(١) والآية كذلك تعلِّل ما سبق من التوجيه الكريم إلى الصَّفح الجميل، فعليك أن تَكِلَ الأمور إلى ربِّك الخلَّاق العليم الذي لا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم، ليحكم بينك وبينهم.

QaradawiBooks.com

هو يخلق ويعلم ما خلق ومن خلق، الَّذي يخلق الشـــيء ألا يعلمه؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملـك: ١٤] يعلـــم كل ما خلق، ويعلم الماضي والحاضر والمستقبل.

نعم الله على رسوله:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۞ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۞ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۞ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، يمتنُّ الله تعالى على رســـوله ﷺ، ويُعَدِّد عليه النعم الَّتي آتاه الله إيَّاها، وهي نعم كبرى، نعم عظمى، لا تُدَانيها النعم الَّتي يُباهي بها النَّاس، ويظنُّونها كلَّ شيء، وهي ليست بشيء، في مقابل ما عند رسول الله ﷺ.

المراد بالسبع المثاني:

ما الســـبع المثاني هذه؟ المثاني جمع مثنـــى، والمثاني تكرار كلمة اثنين اثنين، مثنى وثلاث ورباع دون سأم أو ملل، بل بإقبال نفسٍ وشوق: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ: ٤٦]، المثاني هي الآيـــات الَّتي تُثنى وتكرَّر فـــي القرآن لتكرُّر براهينـــه ومواعظه وقصصه بصور مختلفة لقطع سبل العذر على من يحاول الاعتذار يوم القيامة.

ولذلك قالوا: الســـبع المثاني هـــذه هي الفاتحة، لأنَّها ســـبع آيات بالبسملة كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصَّكم الله بها[1].

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٤٧/٤)، تحقيق سامي سلامة، نشر دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

وقد ثبت في الصحيح أنَّها السبع المثاني: فعن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال: كنتُ أصلِّي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه، فقلت يا رسول الله، إنِّي كنتُ أصلِّي. فقال: «**ألم يقل الله:** ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾**؟!**» [الأنفال: ٢٤]، ثمَّ قال لي: «**لأعلِّمنَّك سورةً هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد**». ثمَّ أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت له: ألم تقل: لأعلِّمنَّك أعظم سورة في القرآن؟ قال: «**نعم**، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، **هي السبع المثاني والقرآن العظيم الَّذي أوتيته**»[(١)].

وجاء في صحاح الأحاديث عن عدد من الصحابة: أنَّها الفاتحة[(٢)]، وهي سورة الحمد[(٣)]، وهي أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب[(٤)]، والسبع المثاني؛ لأنَّها تثنى في الصلوات كلَّ يوم وتُكَرَّر، ولأنَّ فيها قسم ثَناء وقسم دعاء، فالقسم الأول ثناء: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ١ ـ ٤]، والقسم الثاني دعاء: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٤٧٤).

(٢) سُمِّيت بالفاتحة: لأنَّه بها افتتح القرآن، وبها تفتتح كتابة المصاحف، وبها تفتتح الصلاة.

(٣) سُمِّيت بالحمد: لافتتاحها بالحمد لله.

(٤) سُمِّيت بأمِّ القرآن، وأمِّ الكتاب: لأنَّها أوَّله، ومتضمِّنة لجميع علومه، ولاشتمالها على أهمِّ موضوعات القرآن، وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**الحمد لله أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسبع المثاني**». رواه أحمد (٩٧٩٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الصلاة (١٤٥٧)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٢٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣١٨٤).

QaradawiBooks.com

وكما جاء في صحيح مسلم: أنَّ رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «**قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفَيْن ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي.**

فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. قال الله: أثنى عليَّ عبدي.

فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. قال: مجَّدني عبدي.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[1].

الفاتحة خُلاصة القرآن:

على كلِّ حالٍ جاءت الأحاديث تقول: إنَّ الفاتحة هي السبع المثاني[2]، وكما قال الإمام ابن القيم في كتابه: «مدارج السالكين، شرح منازل السائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين»: «وسرُّ الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين [إياك نعبد وإياك نستعين]، وعليهما مدار العبوديَّة والتوحيد، حتَّى قيل أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصَّل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٣٩٥)، وأحمد (٧٢٩١)، عن أبي هريرة.

(٢) وإنَّما وصفت بأنها (مثاني) لأنَّ بين جملها مطويات من المعاني جامعة لكليَّات كبرى من كليَّات الدين، جاء بيانها التفصيلي في سائر سور القرآن.

QaradawiBooks.com

وهما الكلمتان المقسومتان بين الربِّ وبين عبده نصفين، فنصفُهما له تعالى، وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونصفُهما لعبده وهو: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١].

وكما قال شيخنا سماحة الشيخ محمَّد عبد الله دراز رَحِمَهُ اللَّهُ: «القرآن هو دستور الإسلام، والفاتحة هي دستور القرآن، فهي دستور الدستور»[٢]. ولذلك امتنَّ الله بها ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾.

أقوال أخرى في معنى السبع المثاني:

هناك أقوال أخرى منها: أنَّ السبع المثاني هي: السبع الطوال أو الطُّوَل، وهي: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة، وعدُّوا الأنفال والتوبة سورةً واحدة، ومن المعلوم أنَّ هذه السور ـ أي: السبع الطوال ـ سور عظيمة، ولكنَّ هذه السور كلَّها مدنيَّة، وسورة الحِجْر الَّتي معنا الآن سورة مكيَّة، لم يكن النبيُّ ﷺ قرأ هذه السور قبلها، ولم ينزل بهنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على قلبه، ولذلك القول الأرجح أنَّ السبع المثاني هي: الفاتحة.

عطف العامِّ على الخاصِّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾

هذا يُسَمِّيه العلماء عطف العامِّ على الخاصِّ، والكلُّ على الجزء، تقول: جاء الأمير والقوم، والقوم فيهم الأمير، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٤] إنَّما ذكر

(١) مدارج السالكين (٩٥/١).

(٢) مقال: نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم، مجلة المجلة، العدد (٧)، ذو الحجة ١٣٧٦هـ ـ يوليه ١٩٥٧م.

QaradawiBooks.com

تخصيص الأول ثمَّ التعميم، يعني تهتمُّ بالخاصِّ ثمَّ تذكر العامَّ، فتكون ذكرت الخاصَّ مرَّتين: مرَّة بالنصِّ عليه، ومرَّة بالاندراج في العام. فالسبع المثاني هي جزء من القرآن، ولكن ذكرها لخصوصها، لأهميتها، ليلفت النظر إليها.

القرآن آية وهداية:

ثم قال: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾: آتيناك القرآن العظيم، هذا الكتاب الَّذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، كتاب الهداية، كتاب التشريع، كتاب الأحكام، كتاب الأخلاق، كتاب العبادات، كتاب المعاملات، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، الكتاب المعجز، الَّذي أعجز البشر أن يأتوا بكتاب مثله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، أو ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣]، أو ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، فلم يستطيعوا، وحقَّ عليهم قولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، القرآن هذا الكتاب العظيم.

القرآن نعمة الله العظمى على الأُمَّة:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، فلا بدَّ أن تعرف مدى نعمة الله عليك، ومدى إحسانه إليك، حينما آتاك هذا القرآن، ادَّخره لك ولأُمَّتك، لم ينزله على أي أمة، ادَّخر الله هذا الكتاب القرآن لأمة الخلود، آخر أمة، آخر دين هو الإسلام، آخر رسول هو محمَّد ﷺ، آخر كتاب هو القرآن، ادَّخره لأفضل رسول مبعوث إلى أفضل أُمَّة، بأفضل شريعة.

QaradawiBooks.com

من أسماء القرآن الكريم وأوصافه:

وصف الله القرآن ببعض الأسماء والأوصاف الَّتي وصف بها نفسه، فإذا تأمَّلنا في القرآن، نجد أنَّ الله وصف القرآن بعدد من أسمائه الحسنى:

العظيم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، والعظيم من أسماء الله الحسنى.

الحكيم: ﴿يسٓ ۞ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢]، والحكيم من أسماء الله الحسنى.

الكريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]، والكريم أيضًا من أسماء الله الحسنى.

العليّ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، والعليُّ أيضًا من أسماء الله الحسنى.

العزيز: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، أيضًا العزيز من أسماء الله الحسنى.

المجيد: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، والمجيد من أسماء الله.

النور: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، النور من أسماء الله.

كل هذه الأسماء من أسماء الله، سمَّى الله بها هذا الكتاب، القرآن العظيم.

وقد جاء عن بعض السلف: «من آتاه الله القرآن، ثمَّ رأى أنَّ أحدًا قد أوتي أفضل ممَّا أوتي، فقد صغَّر ما عظَّم الله ﷻ» من آتاه الله القرآن:

غير مرخصة للطباعة

علَّمه القرآن، حفَّظه القرآن، فهَّمه القرآن، واستصغر هذه النعمة، ورأى من عنده أموالٌ أهمَّ من القرآن، يكون قد صغَّر نعمة الله العظيمة، صغَّر ما عظم الله ﷻ.

التحذير من زهرة الدُّنيا وزينتها:

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾

إذا كان الله قد آتاك القرآن العظيم، أفيسوغ لك أن تمدَّ عينيك وتنظر نظر تشهٍّ إلى الَّذين يتمتَّعون بالدُّنْيا، إلى أصحاب الفضَّة والذهب، إلى أصحاب القصور والمتاع، هذه كلُّها أشياء تافهة بجوار ما آتاك الله من السبع المثاني والقرآن العظيم.

وهذه هي وصية الله الثانية لرسوله، بعد وصيَّته الأولى بالصَّفْح الجميل.

وقال في سورة أخرى، في سورة طه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، فتنة لهؤلاء، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

المال فتنة وابتلاء:

من يقول: إنَّ المال نعمة؟ ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ هو فتنة، قد يكون نعمة، وقد يكون فتنة، هو ابتلاء في حال السعة والقلِّة: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧] أي: ليس الأمر كما تتوهَّمون، فليست كثرته دليلًا على الإكرام، وليست قلَّته دليلًا على الإهانة، بل هو في الحالين محنة وابتلاء.

QaradawiBooks.com

قَدْر الحياة الدُّنيا عند الله:

الحياة الدُّنيا، أيام معدودة وأنفاس محدودة، ثمَّ يرحل النَّاس إلى الحياة الباقية، الدُّنيا كما يُسَمُّونها دارَ ممرٍّ، لا دار مقرٍّ، الدُّنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروهـا، الدُّنيا لا تزن عند الله جنـاح بعوضة، و«**لو كانت تَزِنُ عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»[1]، لهذا قال الله تعالى:

﴿ وَلَوْلَآ ﴾ كراهة ﴿أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي: أُمَّة واحدة تجتمع علـى الكفـر، ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۞ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۞ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥]، فإذا كانت الدُّنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، فماذا يكون نصيب الإنسان من جناح البعوضة؟!

الكُفَّار المعاندون لا يَسْتَحِقُّون الحزن عليهم:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾

إذا كانوا لـم يؤمنوا بك لا تحـزنْ عليهـم، ولا تغتـمَّ وتتألَّم، فهم لا يستحقُّون الحزن، لا تذهبْ نَفْسُك عليهم حسرات، ذلك لأنَّ النبيَّ ﷺ كان حريصًا عليهم، حريصًا على أن يدخلوا في هذا الدِّين، حريصًا على أن يستنيروا بنور القرآن، حريصًا على أن يهتدوا بهُدى الله، ولذلك كان أحيانًا

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠) وقال: صحيح غريب. وابن ماجه في الزهد (٤١١٠) والحاكم في الرقائق (٣٠٦/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسـناد. وقال الذهبـي: زكريا بن منظور ضعفوه. وقال الألباني في الصحيحة (٦٨٦): صحيح لغيره. عن سهل بن سعد.

QaradawiBooks.com

يحزن ويشقى، ولذلك قال الله تعالى: ﴿طه ۞ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١، ٢]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

لا تحزن عليهم، لا تشغل نفسك بالحزن عليهم، لقد أدَّيت ما عليك، أبلغتهم الرسالة، وبشَّرتهم وأنذرتهم، وأقمت عليهم الحُجَّة، وجئتهم بالبيِّنات، وأصبحوا هم الَّذين يتحمَّلون المسؤولية، وهذه هي الوصية الثالثة لرسول الله ﷺ.

العناية بالمؤمنين المتَّبعين لدعوة الحقِّ الربَّانيَّة:

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

لا تهتمَّ بالمشركين، ولكن اهتمَّ بمن آمنوا بك، بالَّذين اتَّبعوك، بالَّذين قبلوا دعوتك، بالَّذين استعدُّوا أن يبذلوا كلَّ شيء من أجل الدعوة الَّتي آمنوا بها، كنْ دائمًا مع هؤلاء، ودعْك من أولئك، فالمؤمنون هم العصبة الَّذين يُقيم الله بهم الحُجَّة، وينصر بهم الدِّين، ويُعِزُّ بهم الإسلام، ويُعْلي بهم كلمته، ويرفع بهم رايته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]. وهذه هي الوصيَّة الرابعة من الوصايا العشر لرسول الله ﷺ.

التواضع ولين الجانب مع المؤمنين:

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، كلمة «اخفض جناحك»، كناية عن التعامل بالليِّن والرفق والتواضع، وهي مأخوذة من الطائر إذا أراد أن يحتضن فراخه، يخفض جناحه لهم، ويجعلهم تحت جناحه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي سورة الشعراء: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وهنا ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، والله تعالى وصفه بقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ولذلك أمر بخفض الجناح[1].

دلالة كلمة «قل» في خطاب الله لرسوله:

﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾

﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾: أبلغهم بهذه الرسالة، وليس عليك إلَّا أن تنذرهم.

وكلمة: «قل» ـ كما أشرنا غير مرَّة ـ تدلُّ على أنَّ هذا الرسول يتلقَّى ويؤمر: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾، بعض النَّاس خيل له في وقت من الأوقات، أن نحذف «قل» من القرآن، في سورة الإخلاص والمعوذتين، نقول: هو الله أحد، أعوذ بربِّ الفلق، أعوذ برب النَّاس، ونسي هذا الجاهل الأحمق أنَّ هذه تدلُّ على أنَّ الرسول مأمورٌ ومنهيٌّ، ومخاطَب من سلطة عليا، والقرآن مبين لا يجوز أن يُحذف منه حرف ولا أن يُسقط.

تخصيص النبيِّ بالإنذار في هذه السورة:

هو ﷺ نذير وبشير؛ لأنَّ الله أرسل رسله: ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

---

(١) وهكذا كان حاله عليه السلام مع أصحابه، كما قال جل جلاله في وصفه: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمنين فيما بينهم، يتواضعون ويتراحمون، كما كان حال الصحابة رضي الله عنهم: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩]، وكما وصف الله عباده المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

QaradawiBooks.com

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فلماذا قال هنا: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾؟ التبشير: هو الإخبار بما يسُرُّ، والإنذار: هو الإخبار بما يسوء، وهو يبشر أهل الإيمان والطاعة بالجنَّة في الآخرة والسعادة في الدُّنيا، وينذر أهل الكفر والمعصية والفسوق بالنار في الآخرة وبالشقاء في الدُّنيا، لماذا لم يذكر هنا البشارة؟ لأنَّ المقام هنا مقام النذارة، أحيانًا يقتصر القرآن على الإنذار دون التبشير، وهذا تكرَّر في كثير من الآيات: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [صَ: ٦٥]، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ﴾ [الرعد: ٧]، وهكذا، فهو منذر ونذير، أي: إنَّ مهمَّته عندما يكذِّب المكذِّبون، ويكفر الكافرون، ويتمرَّد العصاة على ربِّ العالمين، في هذه الحالة ليس أمامه إلَّا الإنذار، لا يستحقُّون البشارة، هو نذير في هذه الحالة، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤]، فيمكن أن نقول عن الرسل في بعض الأحيان: إنَّهم نُذُر من الله تبارك وتعالى، ليُخَوِّفوا المُكَذِّبين بعواقبهم في الآخرة ومصايرهم في الدنيا، وهذه هي الوصية الربانيَّة الخامسة لرسول الله من ربه.

موقف المشركين من القرآن:

﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾

هل المقتسمون، من القَسَم بمعنى اليمين، أم من القِسْمة؟ احتمالات عند المفسرين.

فالمقتسمون هم الَّذين تقاسموا بالله وحلفوا فيما بينهم، كما تقاسم

QaradawiBooks.com

جماعة ثمود على سيِّدنا صالح، كما قال تعالى عنهم: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩] يدبرون قتله بياتًا بالليل. أو من القِسْمة، أي: تقاسموا فيما بينهم أن يجعلوا القرآن عضين، جزَّؤوا القرآن كأعضاء لحم الجزور أو الشاة. فقسم من القرآن آمنوا به، وقسم كفروا به، فما يعجبهم آمنوا به، وما لا يعجبهم كفروا به، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

من هم المقتسمون الَّذين جعلوا القرآن عضين؟

الرأي الأول:

بعضهم قالوا: إنَّهم اقتسموا مداخل مكَّة، وزَّعوا أنفسهم عليها خصوصًا في مواسم الحجِّ ومواسم العمرة، حينما تأتي قبائل العرب إلى مكَّة، فيسألون عن محمَّد وعن الدِّين الجديد، وعن الدَّعْوة الجديدة، قالوا: كان هناك ستة عشر رجلًا، وبعضهم قال: أربعون رجلًا، وزَّعوا أنفسهم على طرقات مكَّة ومداخلها، فمن سأل عن محمَّد وعن دين محمَّد، فمنهم من يقول لهم: هو مجنون، ومنهم من يقول: هو ساحر، ومنهم من يقول: هو كاهن، ومنهم من يقول: هو شاعر، ومنهم من يقول عن القرآن: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥]، ومنهم من يقول: إنَّه قول شاعر أو قول كاهن وهكذا.. وهذا أحد الآراء، أنَّهم من أهل مكَّة ومن المشركين الَّذين جعلوا القرآن عضين، وقسموه هذا يقول: سحر، وهذا يقول: كهانة، إلخ.

QaradawiBooks.com

الرأي الثاني:

وهناك رأي يقــول: إنَّهم من أهل الكتاب، من اليهــود ومن النصارى، الَّذين آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه، فما وافق فيه كتابهم قالوا: آمنَّا به، وما خالــف فيه كتابهم لم يؤمنوا به كما قــال الله في خطابهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، فهؤلاء جعلوا القرآن عضين.

ومعنى عضيــن: جمعٌ مفرده عِضَة ـ بكســر ففتح ـ وزنــه: فِعَة، أي: أعضاء، وهو تفسير للتقسيم قبله، أي: جعلوه أجزاء، جزَّؤوا القرآن، جعلوه قطعًا، آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض، حذفوا وأخفوا ما لم يوافق أهواءهم. القرآن كلٌّ لا يتجزأ، لا يجوز الإيمــان ببعضه والكفر ببعضه، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، لا بدَّ أن يؤخذ القرآن كلُّه، وأن يؤمن بالقرآن كلِّه، فهؤلاء جعلوا القرآن عضين.

سؤال المقتسمين عن أعمالهم:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿فَوَرَبِّكَ﴾: خطاب للنبيِّ ﷺ، فهذه الآيات كلها خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وشدٌّ لأزره.

﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: مجتمعين لا يتخلــف منهم أحد. وضمير الجماعة يعود على المقتسمين، والسؤال للتوبيخ والتبكيت. وهو يشمل كل المقتسمين من أهل الشرك، وهم الأغلب أو من أهل الكتاب. ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فــي الحياة الدُّنيا، هؤلاء ســيقفون بين يــدي الله ﷻ يومًا ويسألهم عن أعمالهم أجمعين.

QaradawiBooks.com

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، لن يفلت أحدهم من المساءلة ـ يا محمد ـ من أجل ماله، أو من أجل سلطانه، أو من أجل أتباعه وجنوده، لا، كلُّهم سيُسألون أجمعين عمَّا كانوا يعملون.

لن يُفلت منهم أحد، لا كبير، ولا صغير، ولا غنيٌّ ولا فقير، ولا أمير ولا مأمور، كلُّهم مسؤولون.

جاء عن بعض السلف: أنَّ النَّاس سيُسألون يوم القيامة عن أمرين: عن توحيد الله: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٢]، وعن النبوة: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥]. وسيسأل الإنسان أيضًا عن النعيم: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨].

وجاءت الأحاديث أنَّ الإنسان يسأل يوم القيامة: «**عن عُمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه؟**»[(١)].

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾: يُسألون عن أعمالهم خيرًا كانت أم شرًّا، صلاحًا كانت أم فسادًا، يُسأل الإنسان عن عمله، فعليه أن يُحضِّر للسؤال جوابًا، كما قال بعض السلف، اسألوا أنفسكم قبل أن يصير السؤال إلى غيركم، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم.

أمَّا قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾، فالمراد به نفي سؤال الاستعلام.

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٤١٦)، وقال: حديث غريب. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٩٩)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

الجهر بالدعوة والإعراض عن المشركين:

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾

اصدع: اجهرْ بما تؤمر، وبلِّغ النَّاس رسالتك جهارًا وعلانية. فقد كانت الدعوة سرًّا وخفيَّة حتَّى نزلت هذه الآية تأمر بالجهر والإعلان، يقول سيِّدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كان الصحابة والنبيُّ ﷺ يستخفون بدعوتهم، فلما نزلت هذه الآية: صدع الرسول بالدعوة دون توانٍ ولا تقصير[1].

كلمة الصدع في اللغة تعني: الشقَّ، من صدع الزجاج أو غيره، وهنا بمعنى: الجهر والإعلان؛ لأنَّ الصدع يُحْدِث صوتًا.

هنا لا بدَّ من الجهر، الإعلان بالدعوة، لا معنى للإسرار بالدعوة الآن، يجب أن يجهر الجميع بالدعوة، فاجهرْ بالدعوة ولا تخافتْ بها وأعلنْها، فأنت صاحب الحقِّ، ولا ينبغي لصاحب الحقِّ أن يُخافِت به، بل الحقُّ ينبغي أن يرتفع صوته، ويعلو مناره.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾: بما أمرك الله به، بكل ما جاء به القرآن من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق وتشريعات، كل هذا، وكل ما تؤمر به، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

لا تشغلْ نفسك بالمشركين، أعرضْ عنهم، ولا تلتفتْ إلى ما يفعلون، ولا تخاصمهم، ولا تأبَهْ بمعارضتهم، وعنادهم، ولا تخفهم، فإنَّ الله كافيك مكرهم، وحافظك من كيدهم، كما جاء في أكثر من آية في القرآن:

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢٣٧/١)، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، نشر شركة الطباعة الفنية المتحدة.

QaradawiBooks.com

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]. ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠]. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠]. ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أعرض عن المشركين، لا تشغل نفسك بهم، وقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

حتى المنافقين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١] أي: اشغل نفسك بالدعوة، لا تشغل نفسك بهؤلاء، أعرض عنهم، تولَّ عنهم، لا تعيرهم التفاتة.

وقد تضمَّنت هذه الآية وصيتين: السادسة، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، والسابعة هي قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

كفاية اللهِ رسولَه أمرَ المستهزئين:

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾

تأتي المعونة من الله على قدر التكليف والمؤنة، فعندما كلَّفه بإعلان الدعوة والجهر بها أخبره سبحانه بكفايته وحمايته عليه الصلاة والسلام من كيد المستهزئين وأذاهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾: الساخرين المتهكِّمين، نحن كفيناك أمر هؤلاء، وقيناك شرَّ هؤلاء، وأغنيناك عن

QaradawiBooks.com

مجابهتهم، فلا تحمل همَّهم، كما قال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، لا تخف، الله يعصمك من الناس.

هنا يقول أيضًا: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾، الَّذين يستهزؤون بك وبدعوتك وبقرآنك وبأتباعك، كل هذا يجعلونه مصدرًا للهزؤ والسخرية، حتَّى الأتباع الضعفاء الفقراء يسخرون منهم، فيقول: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾، كأنَّ الاستهزاء أصبح صفة ثابتة لهم، تعرف بهم ويعرفون بها[1].

(١) ذكر أصحاب السِّيَر أنَّ المستهزئين برسول الله ﷺ هم أكابر المشركين في الكفر والعداوة، وذكروا منهم خمسة، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، وهم: الوليد بن المغيرة، من بني مخزوم، وكان رأس المستهزئين، والأسود بن عبد يغوث من بني زهرة، والأسود بن المطلب، من بني أسد بن عبد العزّى بن قصي، والحارث بن الطُّلاطلة من خزاعة، والعاص بن وائل من بني سهم، وكلُّ هؤلاء أهلكهم الله جميعًا في مكَّة، وكان هلاكهم العجيب من أهم الصوارف لأتباعهم عن الاستهزاء بالنبي ﷺ. قال ابن إسحاق: حدَّثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره من العلماء: أنَّ جبريل أتى رسولَ الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت، فقامَ وقامَ رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمرَّ به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء، فعمي، ومرَّ به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فمات منه حَبَنًا ـ داء في البطن يَعظُم منه ويَرِم ـ ومرَّ به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جُرح بأسفل كعب رجله كان أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يَجُرُّ إزاره، وذلك أنَّه مرَّ برجل من خزاعة يريش نَبْلًا له، فَتَعَلَّقَ سهم من نَبْله بإزاره، فَخَدَشَ رجلَهُ ذلك الخَدْش، وليس بشيء، فانتقض به ـ تجدد الجُرح بعد ما بري ـ فقتله. ومرَّ به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص رجله، فخرج على حمار له يريد الطائف، فَرَبَض به الحمار على شِبْرِقَةٍ ـ نبات حجازي له شوك تأكله الدواب، وإذا يبس سمِّي الضريع ـ فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته. ومرَّ به الحارث بن الطُّلاطلة، فأشار إلى رأسه، فامتخط قيحًا ـ تحرك القيح في رأسه وانتشر ـ فقتله. انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤٠، ٤١).

QaradawiBooks.com

المستهزؤون يعبدون مع الله إلٰهًا آخر:

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾

هؤلاء المستهزئون يكفيهم شرًّا أنَّهم يعبدون مع الله إلٰهًا أو آلهة أخرى، لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تعطي ولا تمنع، لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٣] هؤلاء يجعلون مع الله إلٰهًا آخر، يكفيهم هذه التهمة، تكفيهم هذه الجريمة، أنَّهم أشركوا مع الله إلٰهًا غير الله، ولا يستحق العبادة أحد إلَّا الله وحده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

تهديد ووعيد:

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾

هذا تهديد ووعيد بالانتقام من الله ﷻ، للذين يجعلون مع الله إلٰهًا آخر، افتراءً عليه، فسوف يعلمون ويدركون باليقين والعيان عاقبة أمرهم، وجزاء كفرهم، واستهزائهم برسوله، ونتيجة سوء أعمالهم من عذاب أليم في نار جهنم.

إرشاد الله لرسوله إلى ما يزيل همه ويشرح صدره:

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾

ثم ختمت السورة بهذه الآيات: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا

QaradawiBooks.com

يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[١].

خطابٌ للنبيِّ ﷺ من ربِّه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ اللام هنا موطِّئة للقسم، وقد للتحقيق، وهذا لتأكيد الكلام[٢].

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾: ينقبض ويغتمُّ ويعجز عن التحمُّل. والرسول بشر من البشر، يؤذيه ويحزنه، ويضيق صدره، وتتألَّم نفسه بما يسمعه من كلامٍ مؤذٍ عن القرآن ممَّا ذكره الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص: ٣٦]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وأنَّه

(١) وفيها تتمَّة الوصايا للنبيِّ ﷺ، وهي الوصية الثامنة: أن يسبِّح بحمد ربِّه. والوصية التاسعة: أن يكون من الساجدين له. والوصية العاشرة: أن يستمرَّ على عبادة ربِّه، ويقوم بوظائف رسالته الدعويَّة، حتى يأتيه الموت الذي تنتهي به حياته.

(٢) التحقيق هنا بـ(قد)، وإن كانت قبل الفعل المضارع، لأنَّ هذا الفعل يفيد الماضي والحاضر والمستقبل. فالله سبحانه يؤكد لرسوله بعبارة (لقد) مع مخاطبته له بضمير المتكلم العظيم، أنَّه ﷻ أحاط علمه بكل شيء، يعلم حتى ما يحدث في صدره ﷺ من انقباض نفسي وضيق بسبب ما يقوله الكفار من أقوال فيها كفر وغمز وتجريح. وإنَّ تأكيد علم الله بما يضيق به صدر نبيه الأمين تسريةٌ لنفسه، وفيه كمال المعاونة، وفيه مع كل هذا ما يفيد الإنذار للمشركين على ما يقولون. وأوصاه ﷻ بثلاث وصايا تزيل همَّه، وتشرح صدره:

الأولى: أن يسبِّح بحمد ربه.

والثانية: أن يكون من الساجدين المصلين الخاضعين له سبحانه.

والثالثة: أن يتابع عبادته لربه، وأن يقوم بوظائف رسالته الَّتي اصطفاه الله لها من دون سائر خلقه، حتى آخِرِ لحظة، من عمره في الحياة الدنيا.

وهذه الوصايا الثلاث هي تتمة الوصايا السبعة الَّتي تقدمت في مطلع هذا الدرس الأخير من هذه السورة.

QaradawiBooks.com

«قول شـــاعر» و«قول كاهن»، قد ردَّ الله تعالى عليهم هذه الافتراءات: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

وكان يضيق صدره إذا سمع الكلام عن شخصه عليه الصلاة والسلام، قالوا: ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وقالوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]، إلى آخره.

يضيق صدره بما يســمعه منهم من الكلام عن دينه وتعاليمه، وعن أصحابه، وفي آيات أخرى يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]. ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس: ٦٥]، ممَّا يدلُّ علــى أنَّ الــكلام قــد يؤذي أشــد مــن التعذيب الجســدي، عندما يضرب شخصٌ شــخصًا آخر، هو يؤلم جســده، ولكن عندما تقول لأخيك: كلمة سيئة، هذه تؤذي النفس، التعذيب يجرح الجسد، والأذى القولي يجرح القلب.

جراحاتُ السِّــنانِ لهــا التئامُ ولا يلتامُ ما جرحَ اللســانُ(١)

يمكن لجرح السنان وجرح السكين أو السيف أن يداوى ويلتئم، أمَّا جرح القلب بالكلام المؤذي والكلام الكاذب والكلام المختلق، فهذا هو الَّذي قال الله له فيه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

ومن أشدِّ الأمور الَّتي كانت تؤذي النبي ﷺ: أنَّهم قالوا عن الله عز وجل: إنَّ له ولدًا: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقــرة: ١١٦]، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤].

(١) ذكره الثعالبي ولم ينسبه في اللطائف والظرائف صـ ١٠٤، نشر دار المناهل، بيروت.

QaradawiBooks.com

وقالوا: الملائكة بنات الله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقالوا: عُزَير ابن الله، وقالوا: المسيح ابن الله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقالوا: إنَّ لله شركاء: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وقالوا: إنَّ لله أندادًا: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقالوا.. وقالوا.. آذوا الله ﷻ بهذه الافتراءات، وآذوا نبيَّه ﷺ، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾.

مقابلة الأذى بتسبيح الله وحده:

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾

بماذا تقابل هذه الأقوال الكاذبة والمؤذية؟ قابلها بذكر الله، بالتسبيح، باللجوء إلى الله، باللياذ بالله ﷻ؛ كي يذهب عنك ما تجده في صدرك من ضيق وحزن.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي: نزِّه الله عمَّا يصفون ويشركون.

والحمد: الثناء الجميل على النعم بالقلب واللسان والعمل.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الإنسان المؤمن في حالة النصر يسبِّح بحمد الله، وفي حالة الضيق والشدة يسبِّح بحمد الله، ولذلك قال الله لرسوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، فإذا نزلت بك الشدائد، سبِّح بحمد ربك. وكذلك إذا منَّ الله عليك بالفتح أو بنصر من عنده، فلا تنس تسبيح الله وحمده، فالتسبيح بحمد الله مطلوب في وقت الشدائد، وفي وقت النصر والعافية.

سبِّح بحمد ربك عند النصر، وسبِّح بحمد ربك عند الشدة، وسبِّح بحمد ربك في السراء والضراء، في النعماء والبأساء، في الهزيمة والنصر، في كل وقت كن مسبِّحًا بحمد الله ﷻ.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إذا ضاق صدرك بأقوال هؤلاء الباطلة، فنزِّه ربك جلَّ وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع الثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال والجمال.

فالتسبيح: تنزيه الله عن كل نقص، **والحمد**: الثناء على الله بكل صفات الكمال، بأن تقول: (سبحان الله والحمد لله)، أو (سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم).

وبالتسبيح بحمد الله ختم الإمام البخاري كتابه الجامع الصحيح بهذا الحديث: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[1].

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: نزِّهْه عن كل نقص، وانسب إليه كل كمال، واحمده على كل نعمة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥٦٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

اللجوء إلى الصلاة:

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

أي: قُمْ إلى الصلاة، لأنَّ السجود هو أبرز ما في الصلاة، وكما جاء في الحديث: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»[(١)]، أن تعفِّر جبهتك بالسجود لله على الأرض، كن من الساجدين، أي: أقم الصلاة، صلِّ لله، والصلاة أبرز ما فيها الركوع والسجود، والسجود أفضل ما في الصلاة[(٢)].

وكثيرًا ما يعبر القرآن عن الصلاة بالركوع والسجود، أو بالركوع فقط، أو بالسجود فقط، وكان النبي إذا حزبه أمر، اشتدت به أزمة من الأزمات فزع إلى الصلاة[(٣)]. كما أمرنا ربنا تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]. فالصلاة مدد في معركة الحياة، مدد عندما تلم بك الخطوب، وتحيط بك الكروب، فالجأ إلى الصلاة.

فالإنسان في وقت الشدة يلجأ إلى الله حتَّى لا يأخذ اليأس منه مأخذه، ويقترب من القنوط، ويبعد من رحمة الله: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

---

(١) سبق تخريجه صـ ٩٧.

(٢) فالإكثار من التسبيح والتحميد مع خشوع القلب له تأثير كبير في شرح الصدر، وتنفيس الهم، وتخفيف الحزن، كما أنَّه يمدُّ الإنسان بقوة وعزيمة تكون عونًا له ـ بإذن الله ـ على مواجهة المصاعب والنوائب. وكذلك الإكثار من الصلاة وإطالة السجود يؤدي بفضل الله إلى انشراح الصدر، وإزاحة الضيق والهم، كما قال ﷻ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

(٣) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد (٢٣٢٩٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الصلاة (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣)، عن حذيفة بن اليمان.

QaradawiBooks.com

الاستمرار على العبادة حتَّى الموت:

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[1]

استمرَّ في عبادة الله ﷻ، فإنَّ الله ما خلقك إلَّا لعبادته: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

اعبد ربك في جميع أوقاتك، استمرَّ في هذه العبادة، اعبد ربك الَّذي خلقك والذي أرسلك، والذي أنزل عليك الكتاب، والذي أيَّدك بملائكته، والذي يرعاك في كل أحوالك فهو أحق من تعبده.

كم تعبده؟ سنتين أم ثلاثة أم عشرة؟ ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾.

واليقين هنا: هو الموت، كما حكى القرآن عن المجرمين المكذبين، حين يصلون سقر، ويدخلون جهنم، ويسألهم أصحاب اليمين: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۞ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۞ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۞ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۞ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۞ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٧]، أي: حتَّى أتانا الموت. فكلمة اليقين هنا تعني: الموت.

ويؤيد هذا ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث الزهري، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء (امرأة من الأنصار): أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، فقالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب! فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال النبي ﷺ: «**وما يدريك أنَّ الله أكرمه؟**»

---

(١) هذه الوصية للرسول ﷺ هي الوصية العاشرة والأخيرة في هذا المقطع من السورة. بدءًا من الوصية الأولى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾.

QaradawiBooks.com

فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله!؟

فقال رسول الله ﷺ: «**أمَّا هو فقد جاءه اليقين، وإنِّي لأرجو له الخير...**»[١].

فاليقين هنا: هو الموت، والموت لا شكَّ فيه، كل مخلوق سيموت، إن لم يكن اليوم فغدًا، أو بعد غد، أو بعد عشر سنين، أو أكثر ستموت.

فاستمرَّ عابدًا لربك ما دام فيك عرق ينبض، وما دام فيك نَفَسٌ يتردَّدُ، اعبد الله إلى آخر لحظة. ولذلك أمر النبي ﷺ بالاستمرار في الصلاة ما دام عقل الإنسان واعيًا، وما دام يفهم الخطاب، قال لعمران بن حصين: «**صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[٢]، حتَّى بالإشارة بالإيماء، لا تترك الصلاة، فما دمت تعقل الخطاب، عليك بالصلاة.

متى تسقط عنك الصلاة؟ إذا سقط عنك الفهم، ولم تعرف ما حولك. أمَّا ما دمت تعقل فأنت مكلف: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[٣].

---

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٢٤٣)، وأحمد (٢٧٤٥٧)، عن أم العلاء.

(٢) رواه البخاري في أبواب تقصير الصلاة (١٠٦٦)، عن عمران بن حصين.

(٣) والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو عام وشامل، وغيره أولى به؛ لأنَّه ﷺ معصوم عن الغفلة، فلا تكون منه فترة عن العبادة، وانقطاع عن الطاعة أبدًا. ولما سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله ﷺ؟ قالت: كان عمله ديمة ـ مستمرًّا ـ وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق؟ متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٩٨٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٣).
وقال ﷺ: «إنَّ أحب الأعمال إلى الله ما دُووِمَ عليه وإنْ قَلَّ». متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٩٧٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٢)، عن عائشة.
ولا تقتصر العبادة في الإسلام على الصلاة والصيام والزكاة والحج، وإنَّما تمتد إلى كل شؤون الحياة، وهذه هي عبادة النبي ﷺ الَّتي بنى بها أفضل المجتمعات وأخرج خير الأمم، وأنتج أعظم الحضارات الإنسانية وأقواها وأزكاها وأزهاها.

QaradawiBooks.com

لا يسقط التكليف عن المكلَّف إلَّا بالموت:

هناك أناس من منحرفي الصوفية يقولون: إنَّ الإنسان عليه أن يعبد الله حتَّى يصل إلى المعرفة، فإذا صار عارفًا بالله، ووصل إلى اليقين بالله، ودرجة الكشف والشهود، سقط عنه التكليف، وسقطت عنه العبادة، اعبد ربك حتَّى يأتيك اليقين، وقد أتاني اليقين، فلماذا أصلي؟ لماذا أصوم؟ لماذا أسبِّح؟ جاءني اليقين، هذا افتراء على الله، وافتراء على دين الله، وضلال في الفهم، وهو مردود بالكتاب وبالسُّنَّة وبعمل الصحابة، وبمقتضى التكليف الإلٰهي، فالإنسان مكلَّف طوال حياته منذ بلغ حتَّى يلقى الله ﷻ.

أعرف النَّاس بالله هم أنبياء الله ورسله، وهؤلاء ظلوا يعبدون ربهم حتَّى الموت، كل أنبياء الله ورسله، وعلى رأسهم خاتمهم محمَّد ﷺ، الَّذي ظل يعبد ربه إلى أن أتاه اليقين، لم يستطع أن يؤم النَّاس فرشَّح أبا بكر، وأمره أن يصلي بالناس، ويصلي ﷺ وراءه[1]. وهكذا ظل عابدًا ربه، موصولًا به حتَّى أتاه الموت، الَّذي لا شك في وقوعه لكل حي، حتَّى صار كأنَّه اليقين نفسه. وبهذا تنتهي سورة الحِجْر المكية.

والحمد لله الَّذي بنعمته تتم الصالحات، وتتحقق الأمنيات، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه تسليمًا كثيرًا.

---

(١) إشارة إلى حديث: صلى رسول الله ﷺ خلف أبي بكر في مرضه الذي مات فيه قاعدًا. رواه أحمد (٢٥٢٥٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والترمذي في الصلاة (٣٦٢)، وقال: حسن صحيح غريب. وابن حبان في الصلاة (٢١١٩)، عن عائشة. قال الزيلعي في نصب الراية (٤٨/٢) بعد أن ذكر أحاديث الصلاة خلف أبي بكر وأحاديث عدم الصلاة قال: إن هذه الأخبار كلها صحيحة، ليس فيها تعارض، فإنَّ النبي ﷺ صلى في مرضه الذي مات فيه صلاتين في المسجد في إحداهما كان إمامًا، وفي الأخرى كان مأمومًا، قال: والدليل على ذلك أن في خبر عبيد الله بن عبد الله عن عائشة أنَّه عليه السلام خرج بين رجلين: العباس، وعلي. وفي خبر مسروق عنهما: أنَّه عليه السلام خرج بين: بريرة وثويبة.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفهارس العامة

- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
اتقوا فراسة المؤمن فإنَّه ينظر بنور الله	١٤٩
إذا اجتمع أهل النَّار في النَّار، ومعهم من أهل القبلة من شاء الله	١٨
... إذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنَّه أوسطُ الجنَّة وأعلى الجنَّة	٥
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء	٩٧، ١٩١
اللهم ربَّ جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض	٨
ألم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟!	١٧٠
أمَّا هو فقد جاءه اليقين، وإنِّي لأرجو له الخير...	١٩٣
إنَّ إبليسَ قال لرَبِّه ﷻ: وعِزَّتِكَ وجلالِكَ لا أبرح أُغْوِي بني آدم	٥، ١٠٦
إنَّ أحب الأعمال إلى الله ما دُووِمَ عليه وإنْ قَلَّ	١٩٣
إنَّ رجلًا من أهل الجنَّة استأذن ربَّه في الزرع	١١٩
إنَّما بُعِثَ النبيُّ ﷺ ليتمِّم مكارم الأخلاق	١٦٦
إنه جبريل أتاكم بعلمكم دينكم	١٣٣

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ت	
التقوى هاهنا	١١٠
تلك الكلمةُ من الجنِّ، يخطفها الجِنِّي، فيقُرُّها في أذن وليِّه قَرَّ الدجاجة	٥٦
ح	
الحمد لله أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسبع المثاني	١٧٠
خ	
خُلِقَتِ الملائكةُ من نور، وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ من نار	٥، ٨٤، ٨٩
الخيرُ كلُّه في يدَيْك، والشرُّ ليس إليك	١٠٥
ص	
صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب	١٩٣
صلى رسول الله ﷺ خلف أبي بكر في مرضه	١٩٤
ع	
عن عُمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه	١٨٢
ف	
فإذا سألتُم اللهَ فاسألوه الفردوس، فإنَّه أوسط الجنَّة، وأعلى الجنَّة	١٠٩
في الجنَّة ثمانية أبواب، فيها باب يُسمَّى الريَّان لا يدخله إلَّا الصائمون	١٠٧
فيخرج من النَّار من قال: لا إلٰه إلا الله. وكان في قلبه من الخير	١٨
ق	
قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفَيْن ولعبدي ما سأل	١٧١
ك	
كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيفَ	١٣٩

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
كان عمله ديمة	١٩٣
كان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي	١٣٤
كان رسول ﷺ الله إذا حزبه أمر صلى	١٩١
كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن	١٩٠
ل	
لا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا	١١٨
لا تدخلوا مساكن الَّذين ظلموا أنفسهم، إلَّا أن تكونوا باكين	٥، ١٥٦
لا يبلغ العبد أن يكون من المتَّقين حتَّى يَدَع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس	١١١
لمَّا قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش	٥، ١٢٤
لو كانت تَزِنُ عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء	١٧٦
ليسوا بشيء	٥٦
م	
ما منكم من أحدٍ إلَّا وقد وُكِّلَ به قرينُه من الجنِّ	١٠٤
ما منكم من أحدٍ يتوضَّأ فيبلغ (أو فيسبغ) الوضوء	١٠٧
من حلف بغير الله فقد أشرك	٨٧
من سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده	١٣٥
و	
وما يدريك أنَّ الله أكرمه؟	١٩٢
ويحك أو هبلت، أَوَجنَّة واحدة هي؟! إنَّها جنان كثيرة، وإنَّه في الفردوس الأعلى	١١٣

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ي	
يا أمَّ حارثة، إنَّها جنان في الجنَّة	١١٢
يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنسكم وجِنَّكم	٦٣
يحشر النَّاس يومَ القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلًا. قالت عائشة	٧٥
ينادي منادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تسقموا أبدًا	١١٥
يَهْرَمُ ابنُ آدم وتَشِبُّ منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر	٢٤

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

فهرس الموضوعات

❖ **من الدستور الإلهي للبشرية** **٤**

❖ **من مشكاة النبوة الخاتمة** **٥**

• **مقدمة** **٧**

❖ **الدرس الأول** **١٢**

ذوات ﴿الٓر﴾ ١٢

الكتاب المسطور والقرآن المتلوُّ ١٣

السرُّ في تعريف الكتاب وتنكير قرآن ١٤

الإبانة من خصائص القرآن الكريم ١٥

القرآن والكتاب شيءٌ واحد ١٥

تذكير الكفَّار بمصيرهم في الآخرة ١٧

متى يودُّ الَّذين كفروا لو كانوا مسلمين؟ ١٧

تحسُّر أهل النَّار وتمنِّيهم أن يكونوا مسلمين ١٨

معنى ﴿رُّبَمَا﴾ ١٩

معنى «ودَّ» في القرآن ١٩

أكْلُ الكفَّار وتمتُّعهم في شهواتهم ولذَّاتهم ٢٠

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

التمتُّع بالدُّنْيا ونسيان الآخرة من شأن الكفَّار ٢١
وعيدٌ شديد من الله ﷻ ٢١
الأنعام تأكل أكثر ممَّا يأكل الكافرون ٢٢
الأمل بين الذمِّ والمدح ٢٢
طول الأمل مذموم ٢٣
نسيان مصاير المكذبين ٢٥
تحذيرٌ وإنذارٌ ووعيد ٢٥
دعوى القرطبي بنسخ هذه الآية بآية السيف ٢٥
الخلافُ في الآية الناسخة المسمَّاة بـ «آية السيف» ٢٧
دعاوى النسخ عند بعض المُفَسِّرين ٢٧
إهلاك أهل القرى في أوقات معلومة محدَّدة ٢٨
الموعد المحدَّد لإهلاك الأمم الظالمة ٢٩
استعجال الكفَّار العذاب ومباغتتهم به ٣٠
سُنَّة اللهِ في تقدير الآجال للأمم والأفراد ٣٠
استهزاء المعاندين المكذبين برسول الله ٣١
وصف الأمم المكذِّبة رسل الله بالجنون ٣٢
افتراء المشركين على رسول الله ﷺ ٣٣
قلب الحقائق عند المشركين ٣٣
طلب المشركين الإتيان بالملائكة ٣٤
الردُّ على اقتراحات كفَّار قريش ٣٤
انتهاء الإمهال عند نزول الملائكة ٣٥
حفظ القرآن الكريم من التغيير والتبديل والزيادة والنقص ٣٦

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الذِّكْر هو القرآن ٣٦
لماذا سُمِّي القرآن ذكرًا وفرقانًا؟ ٣٦
الردُّ على أصحاب القراءة المعاصرة للقرآن ٣٧
الفرق بين نزَّلنا وأنزلنا ٣٨
المؤكِّدات على حفظ القرآن الكريم ٣٨
تميُّز القرآن بالحفظ دون غيره من الكتب ٣٩
كتابة القرآن من عوامل حفظه ٣٩
المحافظة على الرسم العثماني ٤٠
مسابقات حفظ القرآن ٤٠
إسلام أحد اليهود لمَّا بان له أنَّ القرآن محفوظ ٤١
الرَّبْط بين طلب المشركين نزول الملائكة ونزول الكتاب على الرسول ٤٢
التسرية عن الرسول ﷺ ٤٣
استهزاء الأمم المكذِّبة برسل الله ٤٤
مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ ٤٦
سُنَّة الله في الأوَّلين ٤٧
عناد كفَّار قريش ٤٨

❖ **الدرس الثاني** **٥٠**
الآيات الكونيَّة في السماوات والأرض ٥٠
عالم السماوات ٥٢
بروج السماء ٥٣
إبراز عنصر الجمال في الكون ٥٣
حفظ السماء من كلِّ شيطانٍ رجيم ٥٥

QaradawiBooks.com

استراق الشياطين السمع قبل بعثة النبيِّ ﷺ ٥٦
نزول الشُّهُب على مسترقي السمع بعد البعثة المحمَّديَّة ٥٦
آيات في عالم الأرض ٥٧
الأرض مبسوطة ومكوَّرة ٥٧
ابنُ حزمٍ يثبت كرويَّة الأرض ٥٨
جواب الإمام الرازي عن بسْط الأرض وكرويَّتها ٥٨
تثبيت الأرض بالجبال ٥٩
آية الله في إنبات الموزونات في الأرض ٥٩
تأمين المعاش في الأرض للإنسان والحيوان ٦١
المتشائمون من زيادة عدد البشر ٦١
خزائن الله سبحانه ملأى ٦٢
آيات الله الكونيَّة في القدر المعلوم ٦٣
آيات الله تعالى في الريح والرياح ٦٦
قاعدة الزوجيَّة في الكون ٦٦
دلالة السياق على معنى ﴿لَوَٰقِحَ﴾ ٦٧
حفظ الماء العذب ٦٨
آيات الله في الإحياء والإماتة ٦٩
مؤكِّدات الإحياء والإماتة ٧١
الله ﷻ هو الوارث ٧١
علم الله سبحانه الشامل بالمتقدِّمين والمتأخِّرين ٧٢
قدرة الله سبحانه على حشر المتقدِّمين والمتأخِّرين ومحاسبتهم ٧٤
دلالة ختم الآية بالاسمين العظيمين: ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ٧٦

QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الثالث** ٧٨
الخلق المنظور والخلق المستور ٧٨
الإنسان المذكور في هذه القصَّة هو آدم عليه السلام ٧٩
لا فرق بين الإنسان والبشر ٧٩
الإنسان مخلوقٌ من الأرض ٨٠
دفع توهُّم التعارض بين الآيات الَّتي تحدَّثت عن خلق آدم ٨٠
الإنسان مخلوقٌ ضعيف ٨١
قانون العِلِّيَّة ٨١
خلق الجانِّ قبل الإنسان من نار السموم ٨٢
تحديد عمر الأرض ٨٣
الملائكة الكرام من العالم غير المنظور ٨٤
تسوية الإنسان ونفخ الرُّوح فيه ٨٥
جهل الإنسان بحقيقة الرُّوح ٨٦
سبب أمر الملائكة بالسجود لآدم ٨٧
سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس ٨٨
هل كان إبليس من الملائكة؟ ٨٩
سبب امتناع إبليس عن السجود ٨٩
مقارنة بين الطين والنَّار ٩١
حسد إبليس وكبره ٩١
خطر معاصي القلوب ٩١
خروج إبليس من الجنَّة وطرده من رحمة الله ٩٢
مجازاة إبليس بعمله ٩٣

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

القرآن الكريم كتاب حوار ٩٣
طلب إبليس الإمهال إلى يوم البعث ٩٤
ابتلاء الإنسان بتزيين الشيطان وإغوائه ٩٥
معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ ٩٦
إبليس قاطع طريق ٩٧
التزيين والإغواء ٩٧
الفرق بين الإغواء والإضلال ٩٨
طموح الشيطان وعلو همته في التزيين والإغواء ٩٩
المستثنَوْن من تزيين الشيطان وإغوائه ٩٩
أثر الإخلاص في العمل ١٠٠
إخلاص الدِّين لله ﷻ ١٠١
الطريق الموصِّل إلى الله ١٠١
سُنَّة اللهِ في حفظ عباده المخلصين من الشيطان ١٠٢
ما المراد بالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾؟ ١٠٢
معنى الاستثناء المنقطع في اللغة العربيَّة ١٠٣
النجاة من كيد الشيطان ١٠٤
لم يخلق الله تعالى مخلوقًا شرًّا محضًا ١٠٤
كيف أزلَّ إبليسُ آدمَ وزوجَه؟ ١٠٥
موعد الغاوين في جهنَّم ١٠٧
أبواب جهنم وأبواب الجنة ١٠٧
طبقات جهنَّم ودركات الكفَّار فيها ١٠٨
اختلاف أنواع العذاب في جهنَّم ١٠٩
درجات النعيم في الجنَّة ١٠٩

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **الدرس الرابع** **١١٠**
المقابلة بين أهل النَّار وأهل الجنَّة ١١٠
أساس التقوى وثمرتها ومراتبها ١١٠
المتَّقون ليسوا معصومين ١١١
جنات المتَّقين ١١٢
العيون والظلال ١١٣
استقبال الملائكة للمُتَّقين عند دخول الجنَّة وسلامهم عليهم ١١٤
دخول الجنَّة بسلامٍ وأمن ١١٥
سلامة صدور أهل الجنَّة من الغلِّ ١١٦
سلامة صدور الصحابة رضي الله عنهم ١١٧
مجالس أهل الجنَّة ١١٨
لا إعياء ولا تعب في الجنة ١١٩
خلود أهل الجنة ١١٩
شرف العبوديَّة ١٢٠
توكيدات المغفرة والرحمة ١٢١
سر ارتباط المغفرة بالرحمة وتقديم المغفرة على الرحمة ١٢٢
استغفار الأنبياء وطلبهم الرحمة ١٢٢
فتح باب الأمل والجمع بين الخوف والرجاء ١٢٣
المغفرة من أسمائه تعالى والعذاب من أفعاله ١٢٤
المؤمن بين الرجاء والخوف ١٢٤

❖ **الدرس الخامس** **١٢٧**
ثلاث قصص تتحقَّق فيها مظاهر الرحمة والعذاب ١٢٧
قصَّة ضيف إبراهيم ١٢٨

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إبراهيم أبو الضِّيفان ١٢٨
الفرق بين قول الملائكة: «سلامًا» وقول إبراهيم: «سلام» ١٢٩
البشرى بالغلام العليم ١٣٠
المراد بالغلام الحليم والغلام العليم ١٣٠
البشرى بإسحاق بعد إسماعيل ١٣١
الإجمال والتفصيل في قصص الأنبياء ١٣١
القنوط من رحمة الله من لوازم الضلال ١٣٢
تمثُّل الملائكة بصورة بشريَّة ١٣٣
الشأن العظيم الَّذي أُرسِلَتْ به الملائكة ١٣٤
قصَّة قوم لوط ١٣٤
المهمَّة الَّتي أرسل اللهُ بها ملائكته لإبراهيم ١٣٦
الوظيفة الَّتي أرسل بها الملائكة ١٣٧
أمر الملائكة لوطًا بالمسير بأهله ليلًا ١٣٨
القضاء المبرم باستئصال قوم لوطٍ في الصباح ١٣٩
استبشار أهل المدينة بضيوف لوط ١٤٠
تصدِّي لوطٍ لقومه ودفاعه عن ضيوفه ١٤١
تسعُّر شهوة الشذوذ عند قوم لوط ١٤٢
ما المراد ببنات لوط؟ ١٤٢
أقسم الله تعالى بحياة رسوله ١٤٣
مصيبة إدمان المعصية ١٤٤
ثلاث عقوبات نزلت بقوم لوط ١٤٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية
QaradawiBooks.com

العقوبة الأولى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ١٤٤
العقوبة الثانية: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ ١٤٥
العقوبة الثالثة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ ١٤٥
أوصاف قوم لوط عليه السلام في القرآن ١٤٦
تقنين الشذوذ الجنسي في عصرنا ١٤٧
حملة مغرضة ١٤٨
موقفي من الشواذِّ جنسيًّا ١٤٨
آياتٌ وعبر للمعتبرين ١٤٩
مكان قرية (سدوم) ١٥٠
هلاك امرأة لوط مع قومها ١٥١

❖ الدرس السادس ١٥٣

إرسال شُعَيْب إلى أصحاب الأَيْكة ١٥٣
انتقام الله من أصحاب الأَيْكة ١٥٤
ما المراد بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾؟ ١٥٥
أصحاب الحِجْر قوم صالح ١٥٥
من كذَّب نبيًّا فكأنَّما كذَّب الأنبياء جميعًا ١٥٥
مكان حِجْر ثمود ١٥٦
هلاك أصحاب الحضارات القديمة ١٥٦
إعراض قوم صالح عن الآيات ١٥٧
هلاك قوم صالح بالصيحة ١٥٨
في قصصهم عبرة ١٥٩

QaradawiBooks.com

❖ **الدرس السابع** **١٦٠**
التسريةُ عن النبيِّ وشدِّ أَزْره ١٦٠
مخاطبة الله لرسوله بكاف الخطاب في هذه الآيات عشر مرَّات ١٦٠
أوامر ونواهٍ في عشر آيات ١٦١
موقف أولي الألباب من خلق السماوات ١٦٢
العدل الإلهي مع المحسن والمسيء ١٦٢
التأكيد على قرب الساعة ١٦٥
الصفح الجميل ١٦٥
القرآن يحثُّ على تذوُّق الجمال الحسي والمعنوي ١٦٦
دعوى نسخ آية الصفح الجميل بآية السيف ١٦٦
إيناس الله لرسوله وتسليته ١٦٧
قدرة الله على الخلق ١٦٧
فصائل المخلوقات ١٦٨
نعم الله على رسوله ١٦٩
المراد بالسبع المثاني ١٦٩
الفاتحة خُلاصة القرآن ١٧١
أقوال أخرى في معنى السبع المثاني ١٧٢
عطف العامِّ على الخاصِّ ١٧٢
القرآن آية وهداية ١٧٣
القرآن نعمة الله العظمى على الأُمَّة ١٧٣
من أسماء القرآن الكريم وأوصافه ١٧٤
التحذير من زهرة الدُّنيا وزينتها ١٧٥
المال فتنة وابتلاء ١٧٥

QaradawiBooks.com

قَدْر الحياة الدُّنيا عند الله ١٧٦
الكُفَّار المعاندون لا يَسْتَحِقُّون الحزن عليهم ١٧٦
العناية بالمؤمنين المتَّبعين لدعوة الحقِّ الربَّانيَّة ١٧٧
التواضع ولين الجانب مع المؤمنين ١٧٧
دلالة كلمة «قل» في خطاب الله لرسوله ١٧٨
تخصيص النبيِّ بالإنذار في هذه السورة ١٧٨
موقف المشركين من القرآن ١٧٩
من هم المقتسمون الَّذين جعلوا القرآن عضين؟ ١٨٠
سؤال المقتسمين عن أعمالهم ١٨١
الجهر بالدعوة والإعراض عن المشركين ١٨٣
كفاية اللهِ رسولَه أمرَ المستهزئين ١٨٤
المستهزؤون يعبدون مع الله إلٰهًا آخر ١٨٦
تهديد ووعيد ١٨٦
إرشاد الله لرسوله إلى ما يزيل همه ويشرح صدره ١٨٦
مقابلة الأذى بتسبيح الله وحده ١٨٩
اللجوء إلى الصلاة ١٩١
الاستمرار على العبادة حتَّى الموت ١٩٢
لا يسقط التكليف عن المكلَّف إلَّا بالموت ١٩٤

- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ١٩٧**
- **فهرس الموضوعات ٢٠١**

* * *

QaradawiBooks.com

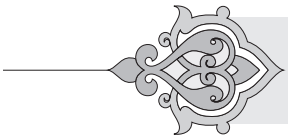

فهرس كتب المجلد

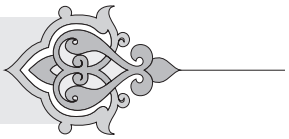

٩٨ ـ تفسير سورة إبراهيم ٥

٩٩ ـ تفسير سورة الحِجْر ٣٠٣

* * *

QaradawiBooks.com